



المركز القومي للترجمة

روبير سوليه

مزاج

ترجمة: إيمان محمود الهباش

مراجعة: داليا حسام الدين زعتر

2099

سلسلة الإبداع القصصي

مزاج

رواية

تأليف: روبير سوليه

ترجمة: إيمان محمود الهباش

مراجعة: داليا حسام الدين زعتر



2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2099
- مزاج
- روبير سوليه
- إيمان محمود
- داليا حسام الدين زعتر
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:
MAZAG
By: Robert Solé

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سوليه ، روبير.
مزاج (رواية) / تأليف : روبير سوليه، ترجمة: إيمان محمود الهباش، مراجعة: داليا حسام الدين زعتر.
ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٣١٢ ص، ٢٠سم
١- القصص الفرنسية
(أ) الهباش، إيمان محمود (مترجمة)
(ب) زعتر، داليا حسام الدين (مراجعة)
(جـ) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع ٩١٩١ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي : 978-977-216-101-0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

تقديم

"مزاج"، رواية كتبها الروائى والأديب الفرنسى "روبير سوليه" وفيها يسلط الضوء على قصة شاب ترك القاهرة متجهًا إلى فرنسا فى حقبة الخمسينيات، وكان فى الثامنة عشرة من عمره، وهو يمثل نموذجًا لشاب شرقى أتى إلى باريس واستطاع أن ينسج بداخلها شبكة من العلاقات التى يصعب الوصول إلى منتهاها أو إلى الهدف منها...

وفى إبحار مع الراوى، يصل القارئ - أو يظن أنه وصل- إلى حقيقة بطل الرواية "بازيل" وإلى أسلوبه فى التعامل مع الناس على اختلاف مشاربهم، وكذلك إلى آليات شبكته وما ينعشها وهو "المزاج"، الذى قد يصعب ترجمته فى العالم الغربى لكنه يترجم تلقائيا فى الشرق.

وقد نجد أن هذا المفهوم يحوى معنى العفوية الذى يتفق إلى حد كبير مع المفهوم المتعارف عليه لدى الشرقى، والذى يفترض أن يجد المرء متعته فى العطاء دون انتظار لأى مقابل؛ لذا نلاحظ أن "بازيل" يجد متعته ومزاجه فى إسعاد الآخرين دون مقابل وفى حرصه على أن يتيح الفرصة للآخرين لكى يسعدوه بدورهم .

وعن شخصية "بازيل" يقول روبير سوليه: إنها شخصية مؤلّفة ومخترعة وقد يكون لها ملامح من الواقع، إلا أنه قد اختزل ملامح عشرات الشخصيات الواقعية فى هذه الشخصية الفنية .

وتعرض هذه الرواية وجهة نظر الكاتب فى التناقض الواضح بين ثقافة مجتمعين: ثقافة الشرق القديم الذى مُنِى بالفساد والتحزب والتفضيل، وشقت الخرافة طريقا إليه؛ وثقافة الغرب الحديث القائمة على العقل والمساواة وتشق طريقها معتمدة على الكفاءة والأحقية والقانون.

وعلى الرغم من ذلك، يكشف الراوى على مدار الرواية وحتى نهايتها، ليس عن تجاوزات الشرقيين فحسب، ولكن عن عبثية وغرابة الشبكة التى نسجها ذلك الشخص فى قلب المجتمع الباريسى، والذى يضم طبقات اجتماعية مختلفة من رواد المقاهى والوزراء والعلماء ذوى الشهرة العالمية وقدامى المحاربين والمحامين والرهبان؛ حيث يجد كل منهم مأربه فى هذه الشبكة الخفية.

وعن الكاتب روبير سوليه، فهو شخصية جديرة بأن تحظى بمكانة فى ثقافة المصريين فقد ولد فى القاهرة عام ١٩٤٦ من أسرة تنتمى للجالية الشامية، التى وجدت فى مصر ملاذا وطمأنينة، وأبدعت نتاجا أدبيا كان له أثر كبير فى النهضة الثقافية. إلا أن قيام ثورة ٢٣ يوليو أدى إلى تقليص الوجود الأجنبى، وتبع ذلك هجرة

معظم الشوام من مصر ومعهم أسرة روبير سوليه عام ١٩٦٤ بعد أن أنهى دراسته فى ثانوية "الجيزويت"، ليستكمل دراسته فى فرنسا فى المدرسة العليا للصحافة.

وفى عام ١٩٦٩ عمل سوليه محررا فى جريدة "لوموند" الفرنسية واستمر فيها لأكثر من عشرين عاما، متنقلا بحكم عمله مراسلا بين روما وواشنطن فى انقطاع تبدد ظلامه عندما عاد إلى مصر مرة أخرى بهدف تغطية افتتاح مستشفى عين شمس الذى ساهم الفرنسيون فى بنائه.

وقد بدأت مرحلة جديدة فى حياة سوليه لدى قيامه بجولة مع منظمة اليونسيف عام ١٩٤٨ فى دلتا مصر، والتى كان يعرفها فى طفولته وصباه، حيث جعل من التغيير الذى طرأ على هذه المناطق مادة لعدد من كتبه ورواياته التى تمثل الحنين إلى الوطن، وكأنه قدر يتوق إليه...

فعند احترافه الكتابة شق سوليه طريقه الأدبى ببعض الأعمال الروائية التى تجسد هذا الحنين مثل رواية "الطربوش" و"سيمافور الإسكندرية" و"المملوكة". ثم أصدر بعض المؤلفات التاريخية وثيقة الصلة بمصر وبأحداث موثقة لا تحمل أية رؤية من الخيال، بل تعتبر هدفا للدراسات السياسية والاجتماعية، فقد تحدث فيها عن ظاهرة الـ"اجيبتومانيا"، مثل "مصر ولع فرنسي" و"رحلة المسلة المصرية إلى باريس" و"علماء بونابرت " و"حجر رشيد" وغيرها...

وفى عام ٢٠٠٠ عاد روبير سوليه إلى عباءة الرواية ليقدم لنا أحب الروايات إلى نفسه، رواية "مزاج"- التى بين أيدينا- وهى كسائر أعماله الأدبية التى تمثل رصدا لأحداث دارت فى مصر فى فترة تاريخية محددة، قام بدراستها من مختلف زواياها وصاغها بدقة صحفى ماهر ومبدع أديب متمكن فى عمل أدبى يحرك المشاعر شأنه شأن لوحة فنية خلابة .

ثم لخص روبير سوليه حبه لمصر فى مؤلفه "قاموس عاشق لمصر" ليؤلف بعصا سحرية بين كل ما أحبه وأبغضه فى هذا الوطن، قاصدا بذلك التعبير عن حبه لمصر ورغبته فى أن يراها دائما على أفضل حال.

كما أراد سوليه استكمال الملحمة الروائية التى تتناول جالية الشوام وأسرة بطركاني، والتى تلقى نظرة فاحصة على أحوال مصر السياسية والاجتماعية والثقافية وما كانت عليه خلال فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى، فكتب روايته الشهيرة "سهرة فى القاهرة" الصادرة فى باريس عام ٢٠١٠، وهى كسائر مؤلفات سوليه تعكس درايته العميقة بأحوال مصر وشعبها وتتناول بعض القضايا المهمة فى التاريخ المعاصر، كالعدوان الثلاثي، وأحوال مصر الاجتماعية فى فترة حكم جمال عبد الناصر، وتأثر مسيحيى الشرق بأى تدخل أوربى عسكرى .

وقد عمد سوليه في عدد من هذه الروايات إلى سرد ذكرياته الشخصية، فهو يعتبر أن "الذكريات مصالحة مع الماضي ... والناس في حاجة للعودة إلى ماضيهم".

لقد ظل روبير سوليه يعمل في مجال الصحافة طيلة أربعين عاما بجريدة "لوموند" الفرنسية– وتخلل هذه الفترة العديد من الأعمال الفنية التي ذكرنا أعمها أثرا – إلى أن تولى منصب رئيس تحريرها قبل تفرغه للكتابة في مارس ٢٠١١، ليقدم لنا كتاب "الفرعون المقلوب" الذي يتمتع بطابع مصري خالص يعكسه غلافه الذي يحمل صورة سيدة مصرية ترفع العلم المصري وترتدي الحجاب شأنها شأن غالبية النساء المصريات.

ويعد كتابه الأخير تحولا جوهريا من الكتابة عن زمن الحنين إلى الوطن، إلى الكتابة الحية من قلب الأحداث، فهو "يروي بعذوبة واضحة حكاية مصر الأمس واليوم"، حتى أنه حرص على إثراء كتابه بشهادات ومعلومات وحقائق من قلب ميدان التحرير الذي تحول إلى أسطورة...

ومن أسطورة "الميدان" إلى أسطورة "بازيل"، يأخذنا "المزاج" في نقلة قد تكون واسعة ولكنها تقتفي أثرا غاليا وعزيزا، ألا وهو الحب والانتماء إلى مصرنا الحبيبة ...

فإلى أحداث الرواية...

(١)

"إن لديه نفوذًا عريضًا"! هذا ما كان يقال عنه فى القاهرة فى إعجاب وصفير.

فى بداية الستينيات كان ابن عمنا "بازيل باتركانى" واحدا من أقوى الرجال فى باريس، ولكن لا أحد يعرف ما الذى كان يفعله هناك. فقد كان يبدو للبعض سمسارا، وللبعض الآخر تاجرًا أو ممولا. إنه على أية حال ودون شك رجل أعمال ذو شأن، فبعد عشر سنوات من رحيله عن مصر، هذا الذى دائما ما كان يدعى بِب، قد أصبح أسطورة.

هنا كان ينبغى لنا أن نوضح الإشارة! هذا ما علّق به أحد أفراد العائلة بشأن إحدى الممثلات الفرنسيات، التى حققت شهرة بالغة فى ذلك الوقت.

كان البعض يقول "بيبي"، وآخرون يقولون "بابى" أو حتى "بابا" (أى أبى باللغة العربية)، فقد كان له لقب فى كل لغة من اللغات الثلاث الماثلة فى عالمنا متعدد الأجناس، وهو أقل ما يمكن أن يوصف به رجل يتمتع بمنزلة كهذى.

نجاحه كان السبب فى ظهور الأقاويل الغامــضة والمتــضاربة. ومن الجدير بالذكر، أن تناقل المعلومات بين مصر وباريس كان ســيئا للغاية وذلك لأن السفر إلى الخارج إما أنه كان ممنوعا، أو دون عــودة، حيث كان يُتوخى الحذر فلا تذكر أى تفاصيل فى بريد تفتحه الرقابة.

ولا يكاد أحد منا يحصل على إذن الخروج من مصر للتوجه إلى باريس حتى توجه له نصيحة واحدة، ألا وهى:

- بمجرد وصولك هناك لا بد لك من الذهاب لرؤية "بازيل".

بالتأكيد كنت سأذهب لرؤية بازيل حتى لو تصديت لجيش من الحراس، أو تصادمت باثنى عشر بابا مصفحا. فعلى من غيره كنــت سأعتمد فى باريس؟ فقد كانوا يؤكدون لى قائلين:

- إنه سيجد لك بيتا.

ومن ثم كان ذلك هو الأسلوب المتبع لتزيين كــل شــيء ... وذلك لأنهم كانوا يعنون "بالبيت"، إما الاستوديو أو غرف الخدم التى يصعب علىّ تخيلها مسكنا لى.

وفور وصولى إلى مطار أورلى، حاولت الاتصال بابن العــم العظيم فى ظل صدمة السكون القاتل الذى أسدلته الممرات الطويلــة الزجاجية. حينئذ كان ينبغى عليّ إيجاد عملة وجهاز تليفون وكــذلك معرفة طريقة الاستخدام، وذلك بعد استرداد الحقيبتين اللتين كنت قــد اصطحبتهما معى من مصر مع حقيبة اليد ... وبعد مــرور ثلاثــة

أرباع ساعة من تلك المحاولات، أدرت قرص الهاتف بأصابع مرتبكة بعض الشيء، وكنت أعتقد أن الجملة الرصينة التى كنت قد أعددتها بعناية لأتوجه بها إلى سكرتارية "بازيل باتركانى" كانت ولا بد أن تمكننى من الحصول على موعد دون الانتظار طويلاً.

وكانت المفاجأة الكبرى أن "بازيل" هو الذى قام بالرد على متغنيًا بكلمات لم يلدغ فيها بالراء بلكنة يصعب تقليدها، والتى لم أسمعها سوى من ساعات قليلة قائلا:

صباح الخير. نعم هنا بازيل باتركانى... من...؟ أحد أبناء فيفيان؟

على الرغم من أن اسمى لم يكن يمثل له شيئا من قبل، فإنه قام باستدعائى قائلا:

- غدا بعد الظهر فى الساعة الثالثة والنصف فى العنوان التالى: ٥٣ مكرر شارع ريمون لوسوران مترو برنتى.

لقد كانت المعلومات تتعاقب كالبرق كما لو كان متعجلا للقائى:

- السلم رقم (د) فى آخر الساحة. نعم، (د) مثل ديسكو فيل والباب من جهة اليسار فى الدور الرابع.

أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها مضطربا بعض الشيء، فلم يكن هناك سبب يجعل "بازيل" يتذكرنى فقد كنت أرتدى شورتا لدى

رحيله عن مصر؛ علاوة على أن عائلة والدتى كانت كبيرة بدرجة لا تسمح له بتذكر أفراد يصغرونه بخمسين عاما، فلم نكن سوى أولاد عم، فجده كان شقيقا لجدى.

كانت سمعة هذا الشارع طيبة، فعندما وصلت إلى أوربا للمرة الأولى ولم أكن أعلم شيئا عن باريس، ظننته حيًا راقيًا يشبه الحى السابع عشر حينما نزلت هناك فى فندق صغير.

وعند مخرج مترو برنتى صدمنى ضيق الشارع وظلمته وأمام رقم٥٣ مكرر تساءلت إذا ما كنت قد أخطأت العنوان، حيث كان المدخل مظلما وذا حوائط مهدمة ويطل على أربعة أبواب أ،ب،ج...أما الحرف الرابع فقد كان ممسوحا. صعدت سلما ضيقا ذا درجات عالية مغطاة ببقايا سجادة بنية اللون، وكان الطابق الأول ذا رائحة كريهة تغم النفس. أما الدور الذى يليه فقد كان ينبعث منه صوت دوى مشادة زوجية، وكذلك عواء كلب ينبح بإصرار.

وفى الدور الرابع كان الباب على الشمال ومكتوب عليه "رن وادخل"، وفعلت ذلك بعد ما ترددت للحظة. وهناك كان يوجد ممر كئيب يؤدى إلى حجرة حوائطها عارية ولا يزينها سوى عدة مقاعد، حيث كان ينتظر رجل مسن يسعل سعالا خفيفا، ومعه سيدة ذات اشقرار زائف فى الأربعين من عمرها. فقلت "صباح الخير"، فردا عليّ دون اكتراث، وبعد برهة من الوقت فُتح باب فى الممر المظلم وسمعت بازيل يودع شخصا لا أعرفه. وهنا وقفت السيدة ثم جلست

على مكتب دون أن تعطيني فرصة لأرى ابن عمي، أما الرجل المسن فقد كان آنذاك يبصق في منديله.

لقد كانت الساعة حوالي الرابعة عندما سمحوا لي بالدخول وهنا رن جرس الهاتف؛ الأمر الذي منع بازيل من أن يعانقني كما كان متوقعًا.

وبإيماءة منه دعاني للجلوس وأمسك بالتليفون، حيث كنت أراقبه خلسة، فلقد كان خمري اللون، فاتح العينين، متوسط القامة وكانت ملامحه أكثر غلظة من تلك التي تبدو في صور مصر الجديدة.

لم تكن ملامح هذا الرجل تشبه ملامح الفتى الأول في شيء، ولا وجه للشبه بينه وبين الأمريكيين ذوي الأسنان العاجية وفك رعاة البقر الذين كنا نجمع صورهم الملونة الموجودة في علبة اللبان ونحن أطفال... ان هذا الرجل الذي كان يقترب من الأربعين بقميصه ذي الياقة المفتوحة لا يشبه بأي حال من الأحوال الصورة التي قد كنت رسمتها له في مخيلتي من قبل! رجع بازيل بالكرسي إلى الخلف ومدَّ ساقيه، ووضع رجليه فوق المكتب - ذلك المكتب المتهالك المصنوع من شجر الصنوبر اللامع - وهو يعرض بكل بساطة حذاء الموكسان البالي حيث واصل حديثه التليفوني قائلا:

- نعم لقد أوليت الأمر اهتمامًا، جوزيف بوريل من مكتب الوزير، أوبرا ٢٥٠٢٥ وأبلغه أنك من طرفي. نعم بي بوريل مثل

بى باتيسكاف، لقد حدثته عن هذا الموضوع وسيسهل لك الأمر ثم استطرد قائلا:

- عفوا... إن ذلك يسعدنى...

ولكن هل كان هذا هو بِ ب بالفعل؟ فإن ذلك الحال يدهشنى، حيث إنه يفتقر إلى الأناقة المشهور بها سكان مصر الجديدة والتى ستتناقض على الأقل مع هذا الديكور. فالبنطلون لم تكن تظهر فيه كسرة الكى وكذلك قماشه ليس من النوع الفخم. وربما كنت سأتأكد أكثر من هويته لو كان قد ارتدى فى معصمه إحدى السلاسل الفضية التى كان يروق لنا شراؤها فى ذلك الوقت، والمزينة بالحروف الأولى من الاسم.

ولكن للأسف لم يكن يرتدى إلا ساعة ضخمة مينتها صفراء من القدم، ترجع قطعا إلى عهد القديس ماتوشالح. عندما وضع بازيل السماعة، كان لا يزال فى جلسته هذى، شبه ممدد وهو يبتسم قائلاً:

- هكذا جئت لتدرس فى باريس؟

لم أجرؤ على أن أتحدث إليه دون تكلف وشرحت له فى بعض جمل عزمى على تسجيل اسمى فى كلية العلوم الاقتصادية. فقال بازيل بلهجة ساخرة:

- كلية العلوم الاقتصادية! ولم لا؟

فقلت له إني أبحث عن غرفة سعرها مناسب، فرد قائلا:

- فكم تستطيع أن تدفع إذن؟

- لا أعرف ولكن ربما مائتى فرنك شهريا...

ففكر لبضع ثوان ثم فتح مفكرة تليفون لونها بنى فاتح وجلدها متآكل ودون أن يستشيرنى رفع السماعة ليطلب رقمًا مدِيرًا فى هدوء قرص الهاتف بواسطة قلم كان يمسك به وتحدث قائلا:

-آلو، السيد باردو؟ أنا بازيل باتركانى. نعم، على ما يرام، أشكرك...

كان بازيل ينظر إلى نظرة ماكرة وكأنه يلهو، واستطرد قائلا:

- اسمع عندى شاب قريبى وهو مصرى يبحث عن حجرة...حسنا، حسنا،هذا جيد جدا، سأرسله لك، نعم إنه كذلك، مع السلامة.

ثم كتب اسما ورقم تليفون على ورقة صغيرة وأعطاها لى وقال:

- هذا الرجل مالك لحجرات بالقرب من مونبرنص.

فأجبت:

- سأذهب إلى أى حى كان.

كان بازيل ينظر وهو لا يزال مبتسمًا ثم قال:

- آه، أنت إذن ابن فيفيان...

فحاولت جاهدًا أن أقول بعض الجمل ولكنه تركني في ارتباكي مشغول البال بأفكار وكأن ذكريات قد أخذت تتوالى وتتعاقب في رأسه. ثم سألني سؤالين أو ثلاثة فأجبته قدرَ استطاعتي.

وعندما دق جرس الباب الخارجي عرفنا أن هناك زائرا جديدا فقال بازيل آسفًا:

- إنهم في انتظاري. سنلتقي مرة أخرى فلا تتردد في الاتصال بي. ثم وقف ووضع يده على كتفي وهو يقودني إلى باب الخروج.

نزلت مرة أخرى مشوش الفكر، أما الزوجان الموجودان في الطابق الثاني فكانا على ما هما عليه من تبادل الشتائم، أما الرائحة فلم تكن قد تلاشت بعد.

فقلت لنفسي: تُرى ما هذه المهنة التي يزاولها بازيل؟ فلم تكن هناك أي إشارة لا على باب شقته، ولا على صندوق الخطابات في أسفل المبنى. كما بدا لي مريبًا مظهر الشخصين اللذين لمحتهما في صالة الانتظار، وفي هذه اللحظة تذكرت السمعة السيئة لجده فرديناند باتركاني...

أما الرجل البرجوازى ذو الشارب فقد أجر لى غرفة خادمة بالقرب من مونبرنص، ولم يطلب ما يثبت مورد رزقى ولا حتى مبلغا من المال على سبيل التأمين، كما أنه لم يستغلنى؛ إذ لم يطلب سوى مائة وخمسين فرنكا إيجارا شهريا للغرفة.

وربما كان ينبغى على الاتصال بابن عمى فى الحال لأقدم له الشكر، إما تليفونيا أو عن طريق خطاب ولكن لم أفعل شيئا من هذا، ففى سن الثامنة عشرة قد ينقص المرء أحيانا بعض الذوقيات.

وقطعا لم تكن لدى أية رغبة فى معاودة الاتصال ببازيل، لأنه قد أحبطنى إحباطًا شديدًا وتحطم حلمى بأكمله. ومن الآن فصاعدا لن أعتمد إلا على نفسى حتى يكون لى مكان تحت الشمس.

(٢)

بعد وصولى إلى باريس بعدة أسابيع كنت كسمكة فى الماء، فقد أخذتنى دوامة الحياة الدراسية التى لم تخل من الطابع الممل الشاق، ولكن التحرر الغريب للفرنسيات من سنى قد أعطى لنظريات كل من آدم سميث وستيوارت ميل شيئًا من النسبية الممتعة.

فى مصر لم أكن مواطنا فرنسيا إلا من خلال قراءاتى، ولأن أجدادى ليسوا من قدامى الفرنسيين (الجولوا) لم أستطع أن أنتسب إلى كل من بيكاسين أو القديسة جان دارك، ولا إلى حيوانات لافونتين ولا إلى الكونت دى مونت كريستو، فقد كنت أعيش فى هذه اللوحات الكبيرة المعلقة فى الفصل على السبورة والمليئة بالكنوز المجهولة فى بلد الصحارى والأسطح؛ سطح القرميد وسطح المداخن وسطح السندرة وسطح البيوت المتراصة على خط واحد، وكذلك سطح الغابات الشاسعة وحزم التبن والبقر السمين والفلاحات وهن يملأن جرار اللبن.

والآن لامست أخيرا هذا الواقع الفرنسى الذى طالما تخيلته، واكتشفت صخب فرنسا وعبقها، وكان يستحيل أن يحبطنى كل ذلك، فقد فاق كل خيالى.

فى مطعم هال الصغير بفرنسا التى وقعت فى غرامها، بهرتنى ملامح نادلة عارية الكتفين مبتسمة تهرول بين المناضد لتعيد الزبائن اللاهثين وراء النساء إلى أماكنهم قائلة لهم:

- انظر ولا تلمس.

إن فكر العالم كله وحريته الكاملة قد اجتمعا فى هذه الأنثى الحقيقية "ماريان" ذات الصدرية المبللة بالعرق. وفجأة ظهر بازيل مرة أخرى فى حياتى وقد كدت أن أنساه، وكان ذلك من خلال سطرين نقشهما نقشاً رديئاً فى ظرف:

٢٩ نوفمبر ١٩٦٣

- أتمنى أن يسير الحال معك على ما يرام فى باريس. أود أن أطلب منك خدمة صغيرة فهل يمكنك الاتصال بى أو المرور عليّ غدا الخميس بعد الظهر فى شارع ريمون لوسوران؟

أشكرك.

بازيل باتركانى

لقد أقلقنى هذا الخطاب الشبيه بالاستدعاء. فقلت محدثا نفسى:

- خدمة؟..... أى خدمة؟ فعلى أى شيء أقدر أنا الغريب الذى لم أكد أصل إلى فرنسا حتى أقدم خدمة لأى أحد؟، وقبل كل شيء

كيف عرف عنوانى؟ دون شك عن طريق ذلك الرجل ذى الشارب الكثيف والنظرة الزائغة الذى كنت أرسل إليه الإيجار بانتظام عن طريق البريد ولم أره قط.

وفى الأسبوع الماضى وبالقرب من منطقة الأوديون، كنت قد قابلت صدفة صديقا لوالدى فسألنى إن كان الوضع فى باريس يروق لى وإن كنت أشكو من الوحدة أم لا، فذكرت اسم قريب لى فاندهش صديق والدى وتمتم قائلا:

- من؟ بازيل باتركانى؟ إنه لا يشبهك فى شيء. وأتمنى ألا يحاول أن يغرقك فى ألاعيبه. فابتسمت متعمدًا لأخفى جهلى بالأمر وإلى هنا انتهى بنا الحديث.

فى تلك الليلة لم أنم جيدا وكنت أسترجع دائمًا الصور التى صدمتنى منذ ثلاثة أشهر مضت.

وفى كابوس داهمنى، كانت صورة ابن عمى تختلط مع صورة مراقب جمارك مصرى كان مسلحًا بكرباج وكان يتهمنى بسرقة حرف (د) من ديسكوفيل.

وفى الحقيقة، لم أكن أريد أن أستدرج إلى نشاط مشبوه مهما كان الثمن، إذ لم يكن لدى سوى بطاقة إقامة مؤقتة.

ولقد كنت وما زلت متأثرا بمناخ الخوف الذى كانت تشيعه شرطة جمال عبد الناصر.

وراودتنى فكرة تجاهل الأمر وكأن الظرف قد فُقد عن طريق البريد، إلا أن بازيل كان سيعاود الاتصال بى، ألم يكن لديه نفوذ كبير كما كان يقال؟ إذًا فالأفضل أن أذهب إليه فى الحال، وقد أجد قطعا حجة لرفض الخدمة التى كان سيطلبها منى.

وتخوفت من التحدث إليه عبر الهاتف وفضلت أن أذهب إلى شارع ريمون لوسوران بعد ظهر يوم الخميس وانتظرت حتى أكون وحدى لأدخل الساحة وأختبئ فى "بير السلم"، لولا نباح كلب عنيف أدهشنى، وأن أحدا كان يزجر الكلب وأغلق الباب الموجود فى الدور العلوى.

وعند طرقة الدور الرابع كان هناك يافطة مكتوب عليها "رن وادخل" وهنا كنت سأرجع ولكن فُتح الباب وظهر ابن عمى، ففزعت قليلا وقال وهو يبتسم:

- آه، أهو أنت؟ ادخل.

كانت صالة الانتظار خالية فأدخلنى إلى مكتبه ودعانى للجلوس وسألنى عن حالى فى باريس.

فأجبت أن كل شيء على ما يرام ولكننى كنت مشغولا للغاية واستطردت قائلا:

- على فكرة أشكرك على الحجرة.

فرد قائلا:

- على الرحب و السعة إن ذلك يسعدنى.

لقد كنت راغبا فى أن أحتفظ بالمسافة بينى وبينه ولذا كنـــت أتجنب أن أحدثه دون تكلف أو احترام.

ثم قال بازيل:

- هل لك أن تقدم لى خدمة؟ إن هذه الخدمة لصديق ســيترك باريس لمدة أسبوعين ويملك أشياء ثمينة ويخشى ترك شقته خاليـــة. فهل تقبل أن تقيم فيها حتى يعود.

فوجئت بهذا السؤال وحاولت أن أجد إجابة مناسبة فقلت:

- فى الحقيقة إن دراستى تمنعنى من عمل أى شيء آخر.

فرد قائلا:

- إن هذا الرجل يسكن فى شارع فلورونس على بعد خطوات من مونبرنص، ولن تحتاج إلى تغيير الحى.

ولكى أكسب وقتا ابتسمت ابتسامة بلهاء قد يفهم منها موافقتى.

فقال:

- أشكرك. كنت متأكدًا أن من الممكن الاعتماد عليك.

كان من الممكن أن يحمل صديق بازيل باتركاني اسما من صقلية أو آثارا لجرح ويرتدى نظارة سوداء... ولكنه كان يحمل اسما عاديا لا ينتمى إلى النبلاء. كذلك كان بيير لوساج ذا شعر قصير وكثيف وهيئة مهندس طرق وكباري وهذا ما زاد شكى فيه. كان صديق بازيل يسكن فى شقة من شقق الطبقة المتوسطة دون أى مظهر لثراء باهر وذلك وسط شارع فلورونس الذى كثيرًا ما يخلو من المارة. فلم يكن هناك أى مجال للشك فى قاطن هذا البيت.

إنه هو الذى فتح لى الباب بنفسه، ثم أدخلنى فى صالون مظلم أثمن ما فيه جهاز راديو قديم، ولكن هل كان السيد لوساج يدعى حقا لوساج؟ لقد دعانى هذا السيد إلى الجلوس وعرض علىّ مطلبه وهو أنه: ينبغي أن أكون موجودا فى هذا المنزل أثناء الليل وأن أُبقى فيه على الدوام غرفة منيرة، وكذلك أرد على التليفون فى نهاية المساء. حيث كان من الممكن أن يتصل به أحد الأشخاص من نيويورك ليترك رسالة فأخبره بها عند عودته.

كانت الغرفة التى خصصت لى توجد فى نهاية ممر طويل دائرى وكان مرفقا بها حمام. أما الحجرات المجاورة فكانت جميعها مغلقة. صاحبنى لوساج إلى نهاية الجانب الآخر من الشقة فى المطبخ ليوضح لى كيفية تشغيل الغاز، كانت الثلاجة تمتلئ بالأطعمة التى يمكن لى تناولها. ثم أعطانى مجموعة من المفاتيح، وأسهب فى شرح كيفية غلق مختلف أقفال باب المدخل ثم استطرد قائلا:

- وعلى أية حال، إذا واجهتك مشكلة ما يمكنك الاتصال بالسيد باتركانى، هو ابن عمك أليس كذلك؟

وفى الساعة المتفق عليها من مساء اليوم الثانى، ذهبت إلى الشقة وفى المدخل كانت هناك حقيبتان موضوعتان الواحدة بجانب الأخرى وكان لوساج ينتظرنى لكى يتصل بتاكسى يقله.

وأخذ يوصينى توصيته الأخيرة بشأن كيفية غلق باب المدخل ثم حمل أمتعته واندفع داخل المصعد، فوجدتنى وحدى أتضور جوعًا وتساءلت:

- ترى، أين تكون الأشياء الثمينة التى نوّه عنها بازيل؟ قطعا ستكون خلف إحدى هذه الأبواب الموصدة جيدا.

ولم يكن جهاز الراديو الموجود بالصالون يعمل، وأما الكتب التى كانت تزين المكتبة، فكان معظمها يتعلق بالعلوم الطبيعية والشعر كما كانت هناك عدة إصدارات لمجلة "ايلوستراسيون"!، موضوعات شتى ولكنها تبعد كل البعد عن اهتماماتى الحالية.

ذهبت إلى الفراش فى ساعة مبكرة ولكن دون أن يداهمنى النوم. وكانت تجول بخاطرى إشاعات غير واضحة بشأن السيد باتركانى، ففى مصر كان الناس يقولون إنه قد أهدر فى فترة وجيزة الثروة التى ورثها عن جده وعلى النقيض يؤكد البعض أنه جمع مالاً لا بأس به من تجارة غير محددة.

وحوالى الساعة الحادية عشرة، رن جرس التليفون فجريت نحو المدخل الذى تركته مضاء حيث كانت هناك سيدة تطلب "إيف "، فأجبت أن الرقم خطأ فأغلقت الخط دون أن تفكر أن تعتذر.

وظل صوت العاهرة المبحوح يلاحقنى لوقت طويل وعدت إلى غرفتى وأغلقت على نفسى وقررت عدم النهوض تحت أى ظرف حيث هدأنى هذا القرار ونمت أخيرا.

تغيبت طوال النهار وألهتنى الحياة الجامعية عن التفكير فيما كنت أفكر فيه. وبعد الغداء، عدت إلى قلعة لوساج، ولم أجرؤ أن أدعو أى زميل وكذلك لم أدخل المطبخ، كنت أكتفى باستخدام الحمام فقط قبل أن أختبئ فى غرفتى.

كان شارع فلورونس واسعًا ومظلما لأنه قطعا كان أقل الشوارع ازدحاما فى باريس.

لم يكن للعمارة حارس، ولكنها كانت مزودة بإنترفون. وفى غضون الأيام التالية أفزعنى جرس الباب السفلى؛ كانت المرة الأولى نحو الساعة العاشرة صباحا حيث خرجت فى وقت متأخر عن العادة، فكان ذلك هو ساعى البريد الذى فتحت له فصعد لإعطائى طردا لبيير لوساج وشعرت أنه يمعن النظر إلى بصورة غريبة، فهل اندهش هو الآخر من خفة هذا الطرد؟ هذا وقد تعمدت ألا أوقع توقيعى المعتاد على إيصال الاستلام الذى قدمه لى.

أما المرة الثانية فكانت فى الثامنة مساء، كان هنـاك شـخص غريب يتكلم، إنه قطعا مندوب؛ حيث كان يتحدث بصوت عال فـى الإنترفون، لم يكن الصوت صافيًا فحال ذلك دون سماع مـا يقـول، أعدت سماعة الهاتف ولم أستجب لاتصاله التالى. وقـد تعجبـت أن السيد لوساج لم يحدثنى عن الإنترفون، فتركزت كل مخاوفى علـى هذا الاتصال.

(٣)

كان صديق والدى الذى قابلته مقابلة قصيرة بالقرب من منطقة الأوديون، لبنانيًّا حاصلا على شهادة الدراسات العليا فـــى التجـــارة. وكان معروفًا بالتقشف والاستقامة وكان يشغل منصب نائب رئـــيس مؤتمر القديس سان فان سون دو بول فى بيـــروت. أمـــا مؤســـسة الاستيراد والتصدير التى كان يمتلكها، فقد كانت تمد العديد من بلدان الشرق الأوسط بالأجهزة الهيدروليكية، حيث كان غالبًا ما يأتى إلـــى باريس، فلقد كان لديه مكتب فى شارع ريفولى.

وبحجة أننى أبحث عن عنوان ما، ذهبت لأطرق بابـــه كـــان السيد إميل الفارس طويلا ورفيعا وذا وجه بارز التقاطيع، وذا بـــشرة شديدة السمرة وتحيط بعينيه نظارة أنيقة ذات إطار معـــدنى ويتمتـــع بحزم المعلم. وأضفى اللون الداكن والخطوط الظاهرة فى حلته مزيدًا من الصرامة على هيئته.

وما إن نطقت اسم ابن عمى، تعجب قائلا:

- ياه، أهذا هو!

منذ أربع سنوات مضت ولدى إنشاء مكتبه فى باريس كان السيد إميل الفارس يحاول الحصول على تصريح صعب المنال؛ وذلك لأسباب معقدة لم يفصّلها لى ولا لأحد من زملاء دراسته القدامى، ممن كان فى إمكانه مساعدته فى حل هذه المشكلة وقال إميل الفارس:

– والدك الذى كنت قد قابلته فى القاهرة فى إحدى رحلاتى كان قد قال لى:

"لماذا لا تذهب لرؤية باتركانى؟ إنه ابن عم زوجتى. ويبدو أنه يتمتع بنفوذ كبير".

ثم ذهبت إلى العنوان المشار إليه فوجدته حانة مشبوهة فى حى لا يحتمل. وكأنه حانوت مرابٍ، وعلى كل حال لقد عرضت عليه مشكلتى، فأخذ يسألنى عن شرعية مطلبى. فقلت لنفسى الشرعية! هل أنا من البلاهة لأفكر فى أن أتلاعب بالقانون! إن أسئلته أثارت غضبى إلى حد كبير، بل ودفعتنى إلى الإشارة إلى دبوس وسام الشرف. وعلى الرغم من ذلك تحدث طويلاً عبر الهاتف وأخذ يسأل هذا وذاك ليتأكد من شيء لا أكاد أعرفه وأخيرًا صرح لى قائلا بنبرة رضا:

– نعم هذا جيد.

ورفع السماعة مرة أخرى وفى أقل من دقيقة- حقيقة - رتب لى مقابلة مع موظف كبير قام خلال أسبوع بتسليمى التصريح المذكور!

فقلت:

- لا أكاد أرى ضررًا فى ذلك...

- تمهل! فلقد عدت إلى الباتركانى هذا فى غضون بضعة أيام ومعى بعض الأموال رغم أننى أكره الرشوة، ولكن فى هذا الوقت لم يكن لدى خيار آخر، وعندما قلت له" أود أن أعرف كم سأدفع لهذا الموظف الكبير الذى أرسلتنى إليه؟" فإذ به يبتسم ابتسامة عريضة ويقول: "لا شيء على الإطلاق" فاستشعرت على الفور أن هناك ملعوبا، فأنا لست بطفل وعلى دراية تامة بمختلف الأعمال؛ إذ إننى أعمل فى هذا المجال منذ ثلاثين عامًا ورأيت كل الأنواع من هذه العمليات...

فقلت له: "حسنا، فكم ينبغى أن أدفع لك"؟

فهز رأسه وقال "لا شيء فإنها خدمة بسيطة لا أكثر" فدهشت. وألححت عليه ولكن دون فائدة، إذ لم يرد أن يسمع شيئا. فى البداية خفت أن تكون المسألة مجرد مساومة ثم أخذت أشك فى صلاحية هذا التصريح، ومضت الشهور وها نحن الآن على مشارف العام الرابع وكل شيء يسير طبيعيًا بفضل الله!

ثم أمسك بخشب المكتب.

فسألته:

- ألم يتصل بك بازيل بعد ذلك؟

- لم أعد أسمع عنه شيئا على الإطلاق وإذا حدث ذلك فعن طريق غير مباشر أى بواسطة أشخاص آخرين كانوا قد تعاملوا مع هذا الشخص الخطير؟

- خطير؟

- بالطبع خطير! فمن أين يستمد نفوذه؟ ومن أى صفقة مريبة؟ فإننا لم نشاهد قط رجلا ليس له وظيفة معينة ولديه مثل هذا القدر من العلاقات ولا يطلب شيئا. سوف تعلم يا صديقى الشاب أنه لا يوجد شيء دون ثمن فالثمن لابد أن يدفع يومًا ما وأنا أكره الدفع الآجل مثلما أكره الطاعون، فهذه الأنظمة تشبه أنظمة المافيا.

وهنا بدأ إميل الفارس ينفعل ويتساءل:

- ترى هل يعمل لحسابه الخاص أم أنه الأداة الخفية لسلطة ذات نفوذ؟ إنه على أية حال خارج عن القانون؟ إن للناس الشرفاء مكتبا يديرون أعمالهم من خلاله وكذلك يافطة مثبتة على الباب (وكان يشير إلى مكتبه المصنوع من شجر الأكاجو ويمثل بيده فعل التثبيت) وموظفين وكذلك عائدا معلنا، أما بازيل فيفتقر إلى كل ذلك وحتى إلى بطاقة تعارف، فالمعاملات عنده تتم دون وثيقة مكتوبة أو شهود.

وواصل حديثه بصوت أكثر جدية:

- فى هذه السنوات الأخيرة حدثنى عدد من الأشخاص عن بطولات هذا الرجل الذى يحقق المستحيل عبر مكالمة تليفونية ولا أحد يعرف كيف؟ ولماذا؟

-إن اللصوص العاديين على الأقل يطلعون الآخرين على مطالبهم، أما هنا فالأمر يبدو أكثر خطورة، ولكن لماذا تحدثنى عنه؟

- عليك إذن تجنب هذا الشخص.

وأكمل قائلا:

وسأحذر والدك من تصرفاته.

بالطبع كنت أجهل أن بازيل قد تعرض لاستجواب من قبل الشرطة، وكان ذلك قبل عدة سنوات من وصولى إلى فرنسا، لقد حدث ذلك عقب بلاغ سرقة تقدم به مستأجر آخر فى العمارة رقم ٥٣ مكرر الموجودة فى شارع ريمون لوسوران، الذى قد سرقت مجوهراته فى وضح النهار. وفى خطاب موجه إلى قسم الشرطة من مجهول ورد فيه ما يحدث من روحات وغدوات مشبوهة فى الدور الرابع، وعندما سئل بازيل عن نشاطه هذا رد بكل بساطة:

- إننى أستقبل أشخاصا بصدد أعمال خاصة.

وفى اليوم التالى تقدم مفتشان مدنيان لإجراء التفتيش الدقيق وفى وقت وجيز أنجزا المهمة سريعًا، حيث كان المنزل فى مجمله خاليًا. ولم يجدا فى المكتب سوى قوائم مليئة بالأسماء والعناوين، هذا إلى جانب دلائل التليفون التى تحير من عددها وتنوعها؛ حيث إن ما كانت تحويه من أرقام كان يكفى للاتصال بجميع أرجاء فرنسا ويمتد ليشمل نصف قارة أوربا. ولكن إلى أن يثبت العكس، فلا جرم فى امتلاك المرء عدة دلائل هاتفية، مما حمل المفتشين على الخروج وهما يدمدمان.

وبعد عدة أيام، عاد مستأجر الدور الثانى الذى قد تقدم بالشكوى إلى قسم الشرطة يكسو وجهه الخجل فقد عادت إليه مجوهراته التى كان قد أخذها ابن له إثر سوء تفاهم بينهما. ومن ثم حفظت القضية، ولكن فى الشهر التالى، نقل المفتش الرئيسى للحى الرابع عشر إلى حى آخر، فهو الذى كان قد ارتكب حماقة توجيه الاتهام لبازيل باتركانى.

(٤)

فى اليوم الخامس جاءت مكالمة تليفونية، فذهبت إلى المدخل لأرد على الهاتف. كانت المكالمة من نيويورك من متحدث ذى لهجة إسبانية يخبر عن تغيير "تاريخ المؤتمر المتفق عليه"، فدونت المعلومة متجنبا كثرة الكلام وذكر اسمى. وفى اليوم التالى، حوالى الساعة الثامنة دق جرس الباب وكان الجار القاطن فى الطابق الأسفل- وهو يرتدى الروب دو شمبر- قد جاء ليخبرنى أنه لاحظ بقعا مريبة على سقف مطبخه فسألنى بصوت عدوانى:

- ألم تتركوا صنبورا مفتوحا؟

فأكدت له أننا لم نترك صنبورا مفتوحا فى هذه الناحية من الشقة منذ عدة أيام، ولكنه أراد أن يتأكد من الأمر بنفسه، فاجتاز عابرا المدخل والطرقة، ولاحظت أنه يلقى بنظرات خاطفة على المكان. كان المطبخ فى أحسن حال وعلى الرغم من ذلك فقد أصر أن يعرف أرقام تليفون شركة التأمين الخاصة بالسيد لوساج ووعدته بالبحث عنها.

ولذلك، حاولت أن أتصل تليفونيا ببازيل بتركانى خمس مرات أو ست فى الصباح، ولكن الهاتف ظل يرن دون رد. فذهبت لمتابعة

محاضراتى فى الكلية وفى اليوم التالى قمت بعدة محـــاولات أخـــرى ولكن دون جدوى، حيث إن بازيل لم يرد علـــى الإطـــلاق! فـــسألت نفسى: هل كان على إخبار الشرطة؟ وتخيلت نفسى فى العربة التـــى تقل المساجين متجهًا إلى السجن... لذا قررت ألا أبرح مكانى.

وكان السيد لوساج قد حدد موعد عودته يـــوم الجمعـــة بعـــد الظهر وكنت أنتظر مجيئه هذا، حيث يدفعنى الخوف أكثر من تـــوقى إلى لقائه. واقتنعت الآن أن هناك شخصا آخر سيأتى مكانه.

وحتى الساعة الحادية عشرة مساءً، لم يكن هناك أى شـــيء يشير إلى أنه سيأتى. وكنت أتصفح مجلة فى الصالون ولكن رأســـى كانت تعج بالأفكار وكنت منتبها لأقل صوت، وللمرة العاشرة كنـــت أكرر ما سأخبره به:

- اتصال نيويورك، والطرد المـــسجل، والتـــسريب الكـــاذب للماء...

وفى منتصف الليل تقريبا، قررت أن أذهب لأنام وكنت متأكدا أن النعاس لن يجد طريقا إلى جفونى. ولم أكد أن أتوجـــه إلـــى دورة المياه، حتى سمعت ضجيجا لمفاتيح تدار فى الباب، فدق قلبى بشدة.

عندئذ دفع لوساج الباب بقدمه، وهو يحمل حقيبتين ودخل وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه قائلا:

- هل تتخيل لقد انتظرت ثلاث ساعات في مدرج مطار إسطنبول! أما في أورلي فقد تأخرت الأمتعة كثيرًا قبل وصولها...

إذا كان في إسطنبول حقا لا شيء يهمني في ذلك، إسطنبول، مكسيكو، ما أهمية ذلك؟ لم يكن لدي سوى رغبة واحدة هي إعادة المفاتيح له والاختفاء بأقصى سرعة.

تساءل لوساج قائلا:

- هل كل شيء على ما يرام؟

فأخبرته باتصال نيويورك ووصول الطرد، فلمعت عيناه وأسرع نحو العلبة الموضوعة على كمودينو المدخل وفتحها بحذر شديد غير مبال بوجودي.

وبداخل هذه العلبة، كان يوجد شيء عجيب ملفوف في عدة طبقات من الحرير.

فصاح السيد لوساج متعجبا:

انظر إلى هذه التحفة الفنية! أليست رائعة! وتحول وجهه إلى وجه عاشق ولم يبق لأي شيء وجود في هذه الحجرة أمام هذا النوع المجفف من نجوم البحر ذات البريق الأزرق. وكان يمسك تلك النجمة بأطراف أصابعه مثلما يمسك قس القربان المقدس. ثم وضعها برقة متناهية داخل العلبة، وبعدما فتح باب ممر مقفول جيدا بالمفتاح، قال لي:

- تعال وانظر.

لقد كانت تنتظرنى لوحة مدهشة: كانت تشغل هذه الغرفة الواسعة عدة مناضد زجاجية وأصداف وخزف ومختلف أنواع المعادن... وذهب لوساج ليحضر غنيمته الجديدة ورفع زجاجًا ووضعها بين نجمتين أخريين فى مكان خال يبدو أنه كان ينتظر مجيئها.

وكرر قائلا:

- أليست هذه معجزة خارقة؟ إننى لست غاضبا أن مؤتمر نيويورك قد تأجل لعدة أيام، لأن ذلك سيسمح لى بالتحدث عن هذه القطعة أثناء مداخلتى فى المؤتمر.

لم أعد متعجلا الرحيل، ولكن الساعة كانت الواحدة صباحًا، فرددت له المفاتيح على مضض. ولكنه قال:

انتظر لدىَ شيء لك.

وأخرج من حقيبته الصغيرة جرابًا به قلم حبر ذو ماركة شهيرة وقلم آخر رصاص جميل الشكل. وأكمل قائلا:

- أنا أعرف ابن عمك لم يكن ليوافق على هذا فأنت تعرفه... ولكن على كلٍ لا شيء يمنعنى من أن أقدم لك هدية صغيرة.

بعدما تركته ببضع دقائق، لم أكن أتساءل عن ببيـــر لوســـاج أستاذ العلوم الطبيعية فى معهد دراسة المحيطات فى باريس والعضو المراسل لكثير من أكاديميات أجنبية، ولكننى كنت أتساءل عن ابـــن عمى غريب الأطوار.

(٥)

كيف أجد ابن عمى؟ فهو لم يعد يجيب على الهاتف. ولم يكن هناك أى سبب يدفعنى للذهاب إليه إلا إذا كنت أود ترك انطباع ما وهو البحث عن مكافأة نظير الخدمة البسيطة التى أسديتها إلى السيد لوساج ولم يكن يتبقى إذن سوى اللقاء الطارئ، لذا قررت أن أترقبه عند باب العمارة الماثلة فى شارع ريمون لوسوران دون أن أعرف إذا كان لا يزال يسكن هذا المكان.

ومنذ الثامنة صباحًا من أحد أيام الاثنين، ذهبت إلى هناك وذلك حتى لا تفوتنى فرصة لقائه. وجدت مقهى بالقرب من العمارة رقم ٥٣ مكرر استطعت من خلاله أن أراقب المدخل، وكنت أمسك بيدى كتاب اقتصاد مفتوحا أمامى للتمويه، وذلك حتى لا يرتاب أحد منى واحتسيت فنجانا من القهوة ثم طلبت آخر... ونحو الساعة العاشرة كان لا بد أن أتأكد إذا ما كان بازيل قد وصل قبلى أو أنه قد مر من طريق آخر، فقررت أن أصعد.

حينها وجدت اللافتة "رن وادخل" ولكن الباب كان مغلقا وعلى عتبة الباب، هاجمتنى أفكار مشوشة من بقايا ذكريات أو قصص قديمة.

لقد كان بازيل ينتمي للفرع الأقل تألقا من عائلة والدتي. ولم تكن أصول ثروة جده فرديناند باتركاني الشهير بناندو بالشيء الذى يفتخر به في القاهرة، حيث بدأ ناندو حياته العملية من الصفر كرجل أعمال في بداية هذا القرن وكان مرابيًا في ريف مصر. كان صغار المزارعين في ذلك الوقت يفضلون اللجوء إلى أمثاله من الأشخاص، بدلا من التعامل مع البنوك التي كانت تطلب ضمانات. وفي نهاية حياة فرديناند باتركاني الذى كان يتسم بضخامة بنيته والذى يربو وزنه على مائة وعشرين كيلو جراما، كان مالكا لأراضٍ شاسعة في الدلتا. هذا إلى جانب عدة عمارات في القاهرة ومما لا شك فيه أنه كان لا يزال يقرض المال بشكل شبه منتظم. وأصبح أحد الوجهاء الأكثر أهمية داخل الرابطة اليونانية الكاثوليكية في مصر وكانت وفاته المأساوية في مصر سنة ١٩٣٥ في مسكنه، حيث كان يقضي جزءا من فصل الشتاء وظلت أسرار هذه الوفاة غامضة حتى الآن. إن الطريقة الهمجية التي ذُبح بها ثم بقر بها بطنه توضح أن ما حدث كان تصفية لحسابات قديمة. لقد آثر أولاده البالغ عددهم أحد عشر فردًا أن يبيعوا كل شيء ويتقاسموا الأموال.

عند نزولي من البيت، قابلت جارا في الدور الثالث فنظر إلى شزرًا وقال:

– هل تبحث عن أحد؟

– السيد باتركاني.

فتمتم قائلا:

- إنه لا يكون هنا مطلقا صباحا، ولكنه يصل عادة فى الثالثة ظهرا.

ومن خلف الباب كان كلب الرجل ينبح ثائرا، وقلت لنفسى:

- لا يمكن أن يكون هنا فى الصباح... وأنا الذى كنت أحاول التحدث إليه دائما قبل الثانية عشرة ظهرا. الآن فقط قد عرفت السبب.

فمنذ الساعة الخامسة إلا الربع، كنت أقف على باب العمارة وبعد عشرين دقيقة ظهر بازيل عند زاوية الشارع واضعا يديه فى جيوبه ثم توقف أمام معرض الفواكه والخضروات المرصوصة ليتحدث مع البائعة. وعلى بعد بضعة أمتار توقف ثانية ليتحدث أيضا مع أحد المارة، فاتجهت إليه وكأننى لم أره فبدا مبتسما وقال دون أن تبدو عليه الدهشة:

- كنت سأكتب إليك بالفعل لأشكرك. كيف حالك؟

فى هذه المرة كنت قد أعددت إجابتى فقلت:

- أشياء عديدة... مشاريع...

فنظر إلى بفضول وقال:

- ينبغى أن تحكى لى ذلك، فلنتناول الغداء معا ولكنى سأتغيب عن باريس لمدة أسبوعين فليكن يوم الاثنين ٥ يناير إذا أردت.

وافقت على هذا الميعاد، إلا أننى قد انتابتنى حالة من القلـــق غير المبرر لأننى شعرت أننى أقذف بنفسى فى فم الذئب، ولكن وقت التراجع قد فات.

(٦)

بين الكريسماس ورأس السنة كنت أعانى من حكة دائمة فـــى الظهر. وكان طبيب الأمراض الجلدية الذى أوصونى بالذهاب إليــه لأستشيره فى إجازة، فوجدت فى الدليل عنوان طبيب آخر باسم كلود بوشون يقيم بالقرب من السربون، حيث حددت لى السكرتيرة ميعــادا لليوم التالى. وذهبت فى الوقت المحدد حيث أكدت لـــى الـشابة ذات البلوزة البيضاء والجالسة خلف المكتب:

– إن الدكتور لن يتأخر.

وبعد عشر دقائق فتح باب، وظهرت امرأة فى الأربعين مــن عمرها وأشارت لى بالدخول فأدركت خطئى؛ وذلك لأن كلود بوشون لم تكن تنتمى لجنس الرجال ولكن لم يفصح اسمها عن ذلك.

سألتنى وهى تحدق النظر إلى:

– ماذا ألمّ بك؟

فشرحت لها مشكلتى البسيطة التى يبدو أنها لم تعرها اهتمامًا، فردت قائلة:

- سأرى ذلك بنفسى، هل يمكنك خلع الجاكيت والقميص؟

ففعلت ذلك ولكن فى شيء من العصبية، فقالت:

- هلا تفضلت على هذا المقعد؟

وقفت الطبيبة خلفى لتكشف على ظهرى، فكانت الحكة ما زالت موجودة تحت عظمة الكتف الأيسر فقالت:

- هنا؟

فأجبت:

- نحو اليمين قليلا

فوضعت إصبعها على الجزء المصاب للحظات بدت لى دهرًا كاملاً، ودون أى تعليق ذهبت لتغسل يدها فى الجانب الآخر من الحجرة وقالت وهى تعود لتجلس على مكتبها:

- الأمر بسيط، لا شيء يدعو للقلق، ما اسمك؟

فاضطررت أن أتهجى اسمى وفى إجابة لسؤال آخر، أوضحت لها أننى أتيت من مصر فلمعت عيناها وقالت:

- ألم تصادف شخصا يدعى بازيل باتركانى؟

فارتسمت الدهشة على وجهى بوضوح وقلت:

- إنه فى مقام ابن عمي- تربطنى وإياه قرابة بعيدة - أى أكاد أعرفه.

فتمتمت وهى تخط الروشتة فى سرعة:

- إنه شخص غريب، عليك أن تدهن هذا المرهم مرتين يوميا صباحا ومساء، ونظرت في المفكرة وقالت:

- أراك ثانية يوم الجمعة... أو من الأفضل يوم السبت، نعم السبت فى تمام الساعة السابعة مساء، هل هذا يناسبك؟

عندما تركت عيادة الطبيب، لم أعد أشعر بالحكة ولكن ثلاث كلمات كانت تدور فى رأسى: "إنه رجل غريب".

فى هذه المرة كان مصباح مكتب السكرتيرة مطفأ؛ وذلك لأنها قطعا كانت قد انصرفت. وكانت كلود بوشون ترتب ملفًا فى صالة المدخل وقالت لى وهى تشير إلى باب مفتوح:

- مساء الخير، تفضل من هنا، سيكون ذلك أفضل فى ساعة كهذى.

فتقدمتها إلى صالون حديث ذى إضاءة غير مباشرة وهنا شعرت أن هذا الموعد لم يكن مناسبًا، وسألتنى بنبرة تلقائية:

- كيف حال الحكة الآن؟

- لقد وضعت المرهم وفى الحقيقة إننى لا أشعر بحكة الآن.

فبدت ابتسامة عابرة على وجهها. ولم تكن كلود بوشون تفتقر إلى مفاتن المرأة، وكان الطلاء الأحمر الداكن على أظافرها لا يتوافق مع بساطة مظهرها وقالت:

- أرني ذلك.

وأخذت أخلع ملابسي ولكن هذه المرة كان ضيقي يفوق ذلك الضيق الذي ألمّ بي في المرة الأولى؛ ربما لأننا كنا في هذا الصالون أو لأنها كانت ترقبني وأنا أفك أزرار القميص...

كنت واقفا عاري القامة وتخيلت أن هذه المرأة خلفي وقريبة جدا مني.

وسمعت أنفاسها تتسارع قليلا. فماذا سنفعل مساءً في أحد أيام السبت ونحن على بعد بضعة أمتار من حجرة كشف مظلمة؟ وقد أحاط بي عطر نفاذ، فأغمضت عيني نصف إغماضة متخيلاً ما سيحدث بعد ذلك فقد تلاشى حرجي، وكنت أنتظر يدها لتلامس كتفي ثم تتهادى في رقة إلى صدري. فمن المؤكد أنها لم تكن ترتدي شيئا تحت قميصها هذا، وكنت سأتركها في الصباح الباكر وعلى ظهري آثار خدش...

قالت لي:

- ارتدِ ملابسك، إن هذه الحكة سببها الحالة النفسية وستزول دون عقار.

فعدت إلى أرض الواقع، بينما ذهبت هي لترد على الهاتف في الجانب الآخر من الغرفة.

ورفضت كلود بوشون أن تأخذ قيمة هذا الكشف الثانى الـــذى فى واقع الأمر لم يستغرق سوى بضع دقائق، وقــررت ألا أتركهــا دون أن أسألها عما كنت أتوق لمعرفتهِ فقلت:

- لقد أخبرتينى فى المرة السابقة أنك كنـــت تعـــرفين بازيـــل باتركانى.

فترددت للحظة وقالت:

- إننى لا أعرفه شخصيا، ولكنى سمعت عنه مـــن صـــديقة كانت قد تعاملت معه، فسألتها:

- هل يمكن أن أقابل هذه الصديقة؟

فبدت مرتبكة وربما نادمة على الكلمات التى تفوهت بها فـــى المرة السابقة.

فقلت لها بإصرار:

- إننى حقًا بحاجة إلى أن أعرف الكثير عن ابن العم البعيد.

فقالت بصوت حالم:

- فى الواقع قد يكون ذلك أفضل.

فذهبت عند التليفون وأدارت قرص الهاتف وقالت:

- آلو، جونفياف، أنا كلود ... إننى الآن مع مريض مـــصرى قريب لبازيل باتركانى من بعيد... ويرغب فى مقابلتك... نعـــم... لا

فى الحقيقة لا أعرف عنه شيئا... نعم بالتأكيد يوم الاثنين فى الساعة الرابعة بعد الظهر.

ونظرت إلى متسائلة، فأومأت برأسى موافقًا.

وبعدما وضعت سماعة التليفون، سجلت اسما وعنوانا على ورقة صغيرة وقالت:

- إن صديقتى تمتلك مقهى فى هذا العنوان فى الحى السابع عشر وبهذا ستنتظرك هناك يوم الاثنين بعد الظهر.

تركت طبيبة الأمراض الجلدية راضيا نوعا ما، وإذا بالحكة تعاود ظهورها.

(٧)

كانت جونفياف أش وكلود بوشون تبدوان وكأنهما نتاج قالب واحد، في سن واحدة ويتمتعان بمظهر وملبس واحد، كما أن طرق التعبير لديهما متشابهة تمامًا. مما لا شك فيه أنهما كانتا زميلتي دراسة ولكن جونفياف مالكة المقهى كانت تدخن بشراهة فهي قطعًا لم تكن تراعي صحتها مثلما كانت تفعل كلود بوشون طبيبة الأمراض الجلدية. ولكي تحدثني بمثل هذه الحرية، فلابد أنها قد اتصلت خلال الأسبوع الماضي بصديقتها التي طمأنتها أنني أجهل كل شيء.

وبعدما رفضت تناول قطعة جاتوه والإكلير بالشيكولاتة، قدمت لي قدحا من الشاي السيلاني وهي تسألني:

- أنت إذن ابن عم لبازيل باتركاني؟

منذ عدة سنوات، كانت جونفياف تجمع الأثاث القديم لكنها كانت تبحث عن منضدة بقائم واحد (من طراز لويس الخامس عشر)، وهو طراز نادر، لتتماشى مع كمودينو من الطراز نفسه، وكانت قد أعلمت الحضور، في أحد لقاءات العشاء، عما تبحث عنه، فأخبرها أحد المدعوين قائلاً: "أعتقد أنني أستطيع أن أحضره لك".

واستطردت قائلة:

- كان المدعو رجلا أسمر يجلس أمامى وفى حقيقة الأمر فمه يشبه فمك بعض الشيء أليس كذلك؟ ولقد بدأ حديثه وهو فخور بنفسه، لكننى معتادة على هذا النوع من البشر، وبعد العشاء سألنى أين يمكن أن يقابلنى فأعطيته هاتف العمل على مضض وتعمدت أن أغيّر أحد الأرقام. وعلى الرغم من ذلك، نجح بازيل باتركانى فى الاتصال بى بعد ثلاثة أسابيع موضحا أنه قد وجد الطاولة لدى أحد بائعى الأنتيكات فى فرساى وقال: "ها هى المنضدة أمامى فأين يجب أن أحضرها لك؟" فظننته يمزح أو أنه أسلوب غير لائق ليحصل به على عنوانى الخاص ومن ثم أحدد له موعدًا. ولكن وصفه للمنضدة جعلنى أشعر بالدوار، ففى هذا المساء وصلت الطاولة إلى صالونى، وبدا لى الثمن الذى طلبه صاحب الأنتيكات مناسبًا تمامًا - حيث إن ابن عمك لم يتدخل فى الأمر- وتظاهرت بالتفاوض للحصول على بعض التخفيض ولكننى كنت سأدفع أى ثمن للفوز بهذه القطعة من الأثاث... وأكملت حوارها وهى تصب الشاى فى الفنجان قائلة:

- ألا تريد حقًا قطعة جاتوه؟

واستطردت قائلة:

- وبعد ستة أشهر، بعث لى خادما لم أستطع تشغيله، لكننى وجدت له مكانا عند أخى الذى يمتلك مطعما كبيرا بالقرب من منطقة

بورت مايو. وفى العام التالى طلبنى السيد بازيل ليعرض على كنبـــة بارجير طراز لويس الخامس عشر من نفس خشب المنضدة السابقة، فاتصلت ببائع الأنتيكات فى منطقة الأورليون لأستفسر منه عن بعض التفاصيل ثم ركبت السيارة وذهبت على الفور لأشتريها.

فبادرت بسؤالها قائلا:

- هل تعتقدين أنهم أخذوا منك عمولة النقل؟

- من يتحدث عن عمولة؟ إن الأمر أكبر من ذلك بكثير.

وبإشارة منها طلبت منى ماء ساخنا لوضعه فى براد الـــشاى قبلما تكمل حديثها قائلة:

- لقد نجح بازيل فى تشغيل ثلاثة موظفين آخرين فى مطعـــم أخى وذلك من خلال الخادم.

وبعد ذلك قمت بالاتصال به لأطلب منه تصريحا لتوسيع هـــذا المقهى وبالفعل استلمت التصريح فى وقت قياسى.

فقلت لها:

- إننى لا أرى سببا واضحًا يدعو للقلق فى مثل هذا التبـــادل للخدمات.

فردت قائلة:

- وأنا أيضا لا أرى سببا يدعو للقلق بشأن هذا الأمر...

ثم تساءلت جونفياف وفى صوتها نبرة من ضيق:

- ولكن ما الذى يفعله ذلك المصرى عند بائعى التحف وهو لا يفهم شيئًا عن التحف أو عن مصر القديمة؟ ثم لماذا يهتم بالندل؟

ثم أكملت قائلة:

- لقد ذهب لتناول الغداء فى أحد الأيام فى مطعم بورت مايو، فاستقبلوه استقبال الملوك وكان الندل يحيطونه بكل رعاية، حتى إن أخى قد شعر أنه فى حضرة المالك الحقيقى للمطعم.

ثم بدت وكأنها مترددة بعض الشيء، فهل بالغت فيما تقص عنه؟ فهو فى جميع الأحوال يعد قريبا لى، ولكن القلق الذى كان يبدو على جعلها تطمئن. وعساها كانت تقول ما قالت لتحذرنى منه.

واستطردت قائلة:

- لقد جعلنى أشعر أنه يتعامل مع الناس كعرائس الماريونات وكأنه يحرك الشخصيات وهو مختبئ وراء ستار، وربما أكون أنا أيضا إحدى هذه العرائس؟ ولو كان بازيل قد تقاضى عمولة عن الكمودينو، فلم نكن لنصل إلى هذا الوضع فى النهاية.

وفجأة، اعتذرت "جونفياف أش" لضرورة إنهاء هذه المقابلة لأن هناك موردا فى انتظارها.

(٨)

كان لبازيل باتركانى عاداته الخاصة فى مطعم "سان جرمان دى بريه"، فما إن نطقت باسمه حتى أرشدنى النادل إلى منضدة فى مكان قصى من الصالة قائلا:

– إنه سيتأخر قليلا فهلا أحضرت لك كأسا فاتحا للشهية؟. فى هذه الصالة المظلمة التى لا ينيرها سوى عدد من المصابيح الصغيرة، كان الزبائن يتهامسون.

ولكى أعطى لنفسى قدرا من الأهمية، قرأت قائمة الطعام للمرة الثالثة. وعندما ظهر بازيل أخيرا، كان يبدو فى حالة من اللامبالاة والارتياح. وما إن ظهر حتى أسرع نادلان لاستقباله وخرجت زوجة صاحب المطعم ذات الشعر الأشقر البلاتينى والصدر الممتلئ لتقبله.

وما كان من بازيل إلا أن اقترب من المنضدة ليربت على كتف أحد المدعوين مرددا بعض الكلمات التى أثارت ضحك الجميع. وفى هذه الأثناء، قام رجل كبير أصلع الرأس وهمس لبازيل فى أذنه قبل أن يتجه نحوى ليسلم على ويجلس أمام الويسكى المثلج الذى كان ينتظره قائلا لى:

- آسف على هذا التأخير، كان على تسوية مسألة ما.

ودون مقدمات بادرنى بالسؤال: أتحب السمك؟ شيء عظيم. سنترك إذًا صاحب المطعم يعد لنا طعام الغداء.

لقد بدل وصول بازيل باتركانى الروح العامة فى المطعم، حيث بدا كل من الندل والزبائن أكثر سعادة وارتياحا؛ فما إن وصل حتى دبت الحياة فى هذا المكان الذى يفتقد إلى البساطة.

وسألنى بازيل وهو يربّت على كتفي

- أين وصلت فى العلوم الاقتصادية؟

فتحدثت عن اهتمامى بعلم النفس الاقتصادى الذى أعده جبريال تارد دون أن أكون متأكدا إذا ما كان هذا الاسم يعنى له شيئا أم لا.

فرد قائلا:

- أنا أعرف عددًا من الأشخاص بهذا الاسم وكأن وجوههم كانت تظهر أمامه.

وقد اكتشفت فيما بعد، أنه على علم بأسماء العلماء مثل دور كايم وسوفى وبيرو وماركس وكذلك كينيس وجالبريت، على الرغم من أنه لم يفتح مطلقا أى كتاب فى علم الاجتماع أو الاقتصاد.

وهنا قدموا لنا جمبرى كبير الحجم كما أذاقنا مـــدير المطعـــم كأسا من مشروب يسمى "بوييه فويسيه"، أحضره من قبوه الخـــاص، مما أثار البهجة حولنا، وهنا استطعت أن أسأل بازيل عن المهنة التى كان يزاولها فأجاب قائلا:

- إننى أعمل لدى كاتب شرعى.

فظننت أنه يسخر منى، وبادرته بالسؤال:

- فماذا تعمل إذًا سيادتك... وماذا تفعل فى شـــارع ريمـــون لوسوران؟

فأجاب قائلا:

- هذا شيء آخر إنه عمل خاص بى. قل لى ما رأيك فى هذا الجمبرى؟ إنه فاخر أليس كذلك؟

ولتأكيد ما يقول رفع إبهامه لأعلى تجاه صاحب المطعم الـــذى حضر مسرعا وقال:

- لقد قلت لك يا سيد باتركانى إن الجمبرى عندى لذيذ جـــدا! ولك عندى مفاجأة فيما بعد... وبالمناسبة إننى أريد أن أحدثك بـــشأن ذلك الشاب الذى يقدم النبيذ هناك للسيد لورو. هل تتصور أنه قد تـــم استدعاؤه لأداء الخدمة العسكرية، إنها حقا لكارثـــة لـــيس للمطعـــم، فيمكن استبداله ولكن الكارثة لزوجته وأطفاله، نعم لديه ثلاثة أطفال،

هل تتخيل ذلك! ولأن هذا الأبله ليس متزوجا فهو لا يستطيع الادعاء بأنه مسئول عن أسرة، والمسئولون فى الجيش لا يريدون أن يتفهموا الأمر، وربما تستطيع أن تخدمه؟

فرد بازيل قائلا:

- إننى لا أعرف الآن ولكن سوف نرى.

لقد كان هذا النوع من السمك المشوى الذى قدمه لنا صاحب المطعم لذيذا للغاية وبعد قليل قام مساعد مقدم الخمور بملء كئوسنا ويده ترتعش، فحدثه بازيل وكأنه يبوح له بسر قائلا:

- إننى أفضل "موسكاديه أو بوبيه" الذى قدمته لنا منذ قليل ولكن لا تخبر صاحب المطعم فقد يغضبه ذلك.

فابتسم المساعد وقال بازيل:

- آه بالمناسبة لقد أعطانى صاحب المطعم فكرة عن موضوع الخدمة العسكرية، لا بد لنا أن نتحدث ولكننى لا أعدك بشيء... هل تستطيع أن تقابلنى غدا فى السابعة مساء؟

و بالفعل كتب الموظف العنوان وشكر بازيل ابن عمى قبل أن ينصرف، فانطلقت قائلاً:

- لقد قدم لى السيد لوساج قلما حبرا هدية، فقطب بازيل حاجبيه قليلاً ثم قال:

- يا لها من فكرة!

- لقد كان يريد أن يشكرني...

- كان يكفيه أن يشكرك.

فأفحمني هذا الرد ولم أجد شيئا أقوله.

ثم أشار بيديه لإحضار الحلوى:

- أنت تقرأ إذن لجبريال تارد؟ ولكن لماذا تارد على وجه الخصوص؟

إذا كان البعض يتكلمون وهم معجبون بما يقولون فأما هو - لا أدرى كيف أعبر عن ذلك - تحب أن تنصت إليه فهو يتحدث بكل جوارحه ولكن دون أن يرفع صوته.

فى الحقيقة، لم تخدعنى هيئة بازيل التى توحى باللامبالاة لفترة طويلة، فلقد كان شديد الانتباه حيث إننى سمعته مرتين أو ثلاث يعلق على إحدى مقولاتى ويوجهها إلى مسارات غير متوقعة. ألم أكن قد ذكرت ضمن حديثى أطروحة جبريال تارد حول التقليد الاجتماعى؟ فقد سألنى إذا ما كان هذا الكاتب قد تأثر هو نفسه بنموذج شخص آخر أم لا؟ وهذا ما كنت أجهله، أو إذا ما كان أتى بجديد فى حياته اليومية؟ وهذا سؤال لم يكن قد تبادر قط إلى ذهنى.

وحتى نهاية الغداء لم يتكلم سوى عنى وعن دراستى ومشاريعى.

(٩)

كانت بعض الصور التى تتوالى على ذاكرتى ترجع إلى مطلع الخمسينيات. فى هذه الصور كانت تظهر مجموعة من الشباب- هم أنفسهم على الدوام- فى أماكن مختلفة عند الأهرامات وأمام سينما روكسى وعلى شاطئ الإسكندرية؛ حيث كانت أنظار جميع هؤلاء الشباب المبتسمين تتجه نحو بازيل باتركانى... فهل يمكن لهذا الشخص الذى كان محط أنظار الجميع فى الصور آنفًا، فى ذلك الوقت أن يصبح رجلا" مرموقا"؟

لقد قال لى صديق والدى إميل الفارس عندما كان يصاحبنى إلى المصعد، إن هذا الرجل سينتهى به الحال إلى سوء المآل مثل كل الأشخاص الذين هم على شاكلته، لأن العدالة توجد أيضًا فى هذه الحياة الدنيا!

و بينما كنت ما أزال تحت تأثير الصوت الدافئ والعطوف لبِب، كنت أحاول الذهاب لمقابلة ذلك السيد اللبنانى لأخبره أنه أخطأ فى حكمه على بازيل.

فرجل كهذا لا يمكن أن يكون مجرما بالطبع، ولكنه كان سيسخر منى إذا قلت له ذلك ويقول:" حسنا.. أيعمل ابن عمك كاتبا شرعيا؟ إنه لا يبدو عليه ذلك. وهل استطعت أن تستوضح نشاطاته الجانبية وكذلك الطريقة التى يقيم بها ما قدمه من خدمات؟"

ويبدو أن إميل الفارس كان يعتبر بازيل شريرا أكثر من كونه لصا، وإننى لأتذكر كلماته جيدا وهو يقول:

– إن بازيل باتركانى تسيطر عليه نشوة السلطة، فلن أنسى أبدا ابتسامة الرضا عندما علم أنه سيمكننى من الحصول على التصريح المطلوب! كما لو كان فى احتياج دائم لأن يقلل من قيمة الآخرين ويسيطر عليهم، فهو يبدأ بتضليل المدينين له بفضل عن طريق هذا المكتب المنفر الذى لا يتطلب دخوله إلا أن تدفع بابه. ولكن الأدهى من ذلك يأتى فيما بعد، عندما تكتشف أن الإجراء القانونى المطلوب يقدم مجانا، ويمكنك أن تأخذنى مثالا على ذلك فلقد أسدى إلى بازيل خدمة جليلة دون مقابل أو تفسير، كان يقول: "إنها خدمة ليس أكثر" على الرغم من أنها تكلف الكثير. وكانت هذه المقولة تضايقنى أشد ما يكون الضيق بل كانت تثير فى نفسى كل حيرة. لقد كنت أجهل متى ينبغى لى أن أدفع الثمن؟ وكيف يكون ذلك؟ ولا شيء يؤكد أنه لن يستخدم هذا التصريح الإدارى الذى حصل عليه بطرق ملتوية ليمارس به ضغوطا على فيما بعد. فهل سأستطيع يوما أن أرفض له طلبًا؟ وهل سأعرف أى نوع من

الخدمات سيطلب. إن هذا النوع من الناس يجد سعادته في توريط غيره من الشرفاء.

ولا أعرف لماذا ذكرتني كلمات إميل الفارس بمظلوم بيه: تلك الشخصية المقيتة التي كانت تأتي من الأفعال والحركات ما يلهي الصغار ويثير حديث الكبار في مصر.

لقد كان مظلوم بيه يقوم بتوظيف العاملين المساعدين في المحاكم المختلطة وهي وظيفة بالغة الأهمية نظرا لمكانة هذه المؤسسة، حيث تحسم الصراعات بين أفراد أو شركات من مختلف الجنسيات. فلم يكن هناك مجال للبقشيش، وفي واقع الأمر لم يكن مظلوم بيه الذي يتمتع بثروة خاصة يبحث عن ذلك. إذ كانت السلطة هي الشيء الوحيد الذي يشغل هذا الرجل البغيض والبالغ من العمر ستين عامًا وكانت تنهال عليه طلبات لشغل وظيفة سكرتير أو حاجب أو كاتب محكمة.

وبعد فترة من الانتظار الطويل يظهر المسئول عن التعيين الذي يرى المتقدم للمرة الأولى فيستقبله على عجل دون أن يسمح له بالدخول قائلاً بصوت فظ:

- ماذا تريد أيضًا؟

وكان مظلوم بيه يقبل طلب الالتماس وهو يتنهد مغتاظًا، كما كان يرفع عينيه إلى السماء متعجبًا كيف يجرءون على إزعاجه لهذا

السبب وكان يصرح أنه فى جميع الأحوال لا تقوم المحاكم المختلطة بالتعيين إلا فى أضيق الحدود، ويترك المتقدم فى حيرة بالغة قائلا:

- مر على الأسبوع القادم.

بل إن مظلوم بيه كان يقوم باستدعاء المتقدم عدة مرات ليسأله عن معلومات إضافية عن دراسته وكذلك عن قدرته اللغوية. على الرغم من أن العناصر التى ترسل إليه كانت ممتازة، من خريجى الليسيه فرانسيه أو من أفضل المدارس فى القاهرة والإسكندرية. وبعد عدة جلسات من الاستجواب كان مظلوم بيه يتلذذ بإعطاء إجابات تفيد الرفض فيقول: فى الحقيقة لا، لم يكن ينبغى لك أن تأتى لتتوسل إليّ، ما الفائدة من ذلك؟ لقد أضعت وقتك فمن يعلم ربما كانت هناك وظيفة شاغرة فى بنك أو شركة تأمين قد فاتتك فى هذه الأثناء؟ وإذا كانت النتيجة لصالح المتقدم يبقى الشك ملازمًا له حتى النهاية عندما يقوم الرجل الطيب غاضبًا ونادمًا ليخبر المتقدم أنه سيدخل امتحان القبول. فقد كان مظلوم بيه يلقى الخبر السار كما تُلقى قطعة من لحم إلى كلب لاهث، ذلك قبل أن يؤكد متنهدا أن هذا الأمر كلفه الكثير من الوقت والجهد وتسبب له فى الكثير من المضايقات. كان شريرًا لأبعد حد، حتى إنه قد يصل به الأمر فى بعض الأحيان إلى إلغاء قرار بالموافقة بعد عدة أيام من صدوره، ذلك عن طريق خطاب معسول يحمل قارئه على إلقاء نفسه فى النيل، حيث يكون نصه:" لقد كنت ملائما تماما للوظيفة وأوشكت الحصول عليها حتى إننى قد

كتبت اسمك فى السجل، ولكنّ هناك سببًا ثانويًا للغاية" أو أنه يكتب لمؤسسات أخرى توصيات ملتوية على النحو التالى: "أرجو أن تأخذ فى الاعتبار ترشيح السيد فلان صاحب الملف المتكامل، أو السيد علان الذى تنقصه – دون شك – المؤهلات الضرورية لهذه الوظيفة المطلوبة، ولكن يبدو لى أنه يستطيع اكتساب العديد من المهارات التى تنقصه".

عندما حصل بازيل على ليسانس الحقوق (١٩٤٧-١٩٤٨)، كانت المحاكم المختلطة على وشك الاختفاء. ولكن ظل البعض يتملق مظلوم بيه لما يتمتع به من علاقات شتى وكان يتناول فى يده قائمة تضم أسماء كل من كان مدينا له بوظيفته" على حد قوله. ولكن هؤلاء كانوا يفضلون الموت ألف مرة على أن يتذللوا له مرة أخرى.

ترى هل كانت هناك صلة ما تربط بين بازيل ومظلوم بيه؟ لقد كنت ممزقا بين الرغبة فى معرفة ذلك من ناحية والحذر الذى كان يدفعنى إلى الابتعاد عنه من ناحية أخرى. ولكن سرعان ما قرر بازيل مصيرى.

(١٠)

باريس ٢ من مارس ١٩٦٤

ابن العم العزيز

أود أن أطلب منك خدمة بسيطة، فهل يمكنك الاتصال بي أو المرور على في شارع ريمون لوسوران؟ وشكرا مقدما.

بازيل ب.

لم أعد أفهم شيئا، لماذا كان إميل الفارس رجل الأعمال اللبناني الذى كان مدينا لابن عمى بخدمة فى غاية الأهمية، لا يعرف شيئا عن أخباره منذ أربع سنوات بينما طلبنى فى خدمة للمرة الثانية خلال بضعة شهور قليلة؟

وبعد ظهيرة هذا اليوم ذهبت ودققت الجرس ودخلت.

وفى صالة الانتظار كانت هناك شابة فى الثلاثين من عمرها وهى ذات شعر فاتح وكانت متكئة على المدفأة وبين شفتيها سيجارة وقالت لى "صباح الخير" وبلهجة واثقة رحبت بى كما لو كانت تستقبلنى فى بيتها وقالت:

هل أنت ابن عم بازيل؟

ترددت للحظة ثم أجبت:- نعم.

فقالت لي ساخرة:

ألست متأكدا؟أم ماذا؟

فشعرت بإهانة ونظرت إليها نظرة غاضبة، لكنها لم تلبث أن مدت إليّ يدها لتسلم علي وتعرفني بنفسها:

- أنا لورانس موبرجيه.

للوهلة الأولى لم أكن لأقول إنها جميلة ولكن ما يلفت الانتباه في الحال هو شخصيتها وحضورها وأيضا رائحة عطرها الذكية المختلط برائحة دخان الحجرة.

ولضيق الوقت لم يطل حديثنا، فقد ظهر بازيل عند الباب حيث كان يوصل زائرًا وقال لي:

- أشكرك على حضورك. أتعارفتما؟ هذا جيد جدًا، تفضل بالدخول بينما ستنتظر لورانس قليلا.

وفي الداخل أخذ بازيل يسألني عن أخباري وعن دراستي وأراد أن يعرف إذا ما كنت قد زرت متحف اللوفر وقصر فرساي أم لا. ثم فتح درج مكتبه ليعطيني صورة قديمة لجبريال تارد وهو في

زيه الرسمى، حيث ترجع إلى عام ١٩٨٠ والله يعلم أين عثر على هذه الصورة التى تأثرت بها تأثرًا بالغًا.

وبعد ذلك انتقل بازيل إلى الموضوع الذى طلبنى من أجله قائلا:

- الاثنين القادم، سينظم نادى الروتارى الموجود فى مدينة مون غداءً مصريا، نعم مصريا، فكما تعرف أن الفرنسيين أحيانا يحبون الأشياء الغريبة... على العموم مون ليست ببعيدة عن باريس؛ فسيكون الذهاب والإياب فى اليوم نفسه.

فقلت له بصوت ساخر:

- ولكننى لا أجيد فن الطبخ.

فقال:

- اطمئن فالأمر لا يتعلق بالطبخ أو تنظيف الصحون، إنهم يرغبون فى شخص يكلمهم عن مصر فى عهد ناصر... لا، لا هدئ من روعك، فلن تقوم بإلقاء محاضرة ولكن المطلوب منك فقط أن ترد على أسئلة تتعلق بالحياة اليومية فى مصر. وأنا على يقين أنك ستحسن تدبير الأمور كما أن رئيس نادى الروتارى الذى أراه رجلاً ذكيًا، قد عزم على ترجمة قائمة الطعام إلى الهيروغليفية وكذلك إلى العربية.

بالنسبة للهيروغليفية، أحضرت له عالم آثار. أما بالنسبة للعربية، فأعتقد أنك تستطيع أن تتولى هذا الأمر؟

فنظرت إليه نظرة ثاقبة وقلت له:

- بخصوص مصر وقبل أن أنسى، أريد أن أسألك هل كنت تعرف مظلوم بيه شخصيا؟

فبدا الذهول على وجهه ثم أخذ يقهقه قائلاً:

- هذا الوغد العجوز؟ إننى لم أكن أعرفه فحسب، ولكنه مدين لى بلقب الباشاوية وهذا موضوع يحتاج إلى وقت طويل ولورانس تنتظر فى الخارج، فلنتحدث إذن مرة أخرى.

ثم استطرد قائلا:

- ما قولك بشأن أعضاء نادى الروتارى فى مون؟

فابتسمت مذعنًا.

- أشكرك كنت أعلم أنه يمكننى الاعتماد عليك.

ثم أعطانى قائمة الطعام لأترجمها وكذلك قدم لى تذكرة ذهاب وإياب درجة أولى وسألنى:

- ماذا ستفعل فى أحد يوم القيامة المجيد؟ لا يوجد شيء معين، أليس كذلك؟ إذا ستتناول معى الغداء وفى هذه المرة سيكون

الطعام فرنسيا، والعنوان هو شارع جيه لوساك ويمكنك أيضا تـدوين رقم التليفون.

ثم صاحبني إلى باب المدخل ويده على كتفي فمعه تشعر فعلا بالصحبة.

وفى المساء ذاته، قمت بكتابة قائمة الطعام باللغة العربية مستعينا بقاموس فرنسي - عربى للبحث عن معانى بعض الكلمات غير المتداولة مثل "سمبوسك الدجاج " و"بسكوت اللوز" والتى لم أكن أعرف معناها حتى باللغة الفرنسية.

ولدى وصولى إلى محطة مون، استقبلنى رجل خفيف الظل ذو لحية وكان يدخن البايب، وأركبنى سيارة DS ليصحبنى إلى مطعم فى وسط البلد. وصافحت أناسا كثيرين. وبعدما تناولت كأسا فى جو مليء بالصخب والدخان، أجلسونى على يسار الرئيس، وكان الوقت المتاح لى لا يسمح إلا بالرد على ثلاثة أسئلة أو أربعة عن وضع المدارس الفرنسية التى كانت موجودة سابقا فى مصر. ولكن اهتمام الحضور كان موجهًا بصفة خاصة إلى عالم الآثار المصرى الجالس على يمين الرئيس، حيث كان يتحدث باقتدار فى شيء من الأسى عن آثار النوبة التى هددها السد العالى فى أسوان. ثم دارت مناقشة حادة حول عربة الإسعاف التى كان الروتارى يود أن يهديها إلى المستشفى المحلى.

وعند احتساء مشروب البوس كافيه، شكرنى المدير شكرًا بالغًا بدا لى زائدًا عن الحد ثم أهدانى قلما (قلما آخر!) فقررت ألا أخبـــر ابن عمى عنه.

(١١)

على مسافة لا تبعد كثيرا عن حديقة لوكسمبورج وفى الطابق الثالث، كان بازيل يسكن فى منزل صغير يتميز ببساطة أثاثه ويفتقر إلى اللوحات والتحف الصغيرة، إلا أنه فى مكان واضح من المدخل كان يوجد برواز صغير يحتضن صورة، أخذت فى الثلاثينيات لزوجين مبتسمين فى سن الشباب، وكانا يظهران فى إحدى الحلبات الأوروبية للتزحلق على الجليد فى فصل الشتاء؛ هما دون شك والدا بازيل.

كان بازيل يرتدى بلوفرا يدوى الصنع، ياقته على شكل V، سألنى عن مهمتى فى نادى الروتارى فى مون وشكرنى على الخدمة التى قدمتها له.

فقلت على استحياء:

- عفوا، أنا لم أفعل شيئًا

فأجاب وهو يشدد على كلمة مطلقا:

- الأمر ليس كذلك مطلقا.

وبينما كان بازيل يبحث فى خزانة الأطباق عن كئوس لشراب فاتح للشهية، بادرته بالسؤال الذى كان يؤرقنى:

- ألا ينبغى أن تحدثنى عن مظلوم بيه؟

فطفق يضحك وقال:

- مظلوم بيه؟ أنا أسميه مظلوم باشا.

ثم حكى لى الحيلة التى لجأ إليها هو وبعض أصدقائه للانتقام من الرئيس السابق لمكتب المحاكم المختلطة بسبب كل أعماله الوحشية:

- ففى صباح أحد أيام شهر يونية عام ١٩٤٨، تلقى مظلوم بيه خطابا رسميا من القصر يفيد أن الملك فاروق قد أنعم عليه بلقب باشا لاستحقاقاته العديدة. باشا! لقد كاد الرجل أن يطير من الفرحة، فلم يعد قادرًا على احتمال الخبر وفى الساعات التالية تحدث إليه عبر الهاتف الأشخاص الذين لا يعرفهم والذين كانوا يدعون أنهم موظفون فى القصر، ليهنئونه بحرارة على ترقيته. أنا نفسى تظاهرت بأنى أحد نواب مدير القسم الأوروبى وتحدثت إليه ملقبًا إياه "بالباشا" فى وضوح... فلقد كان هذا القذر غارقا فى النعيم. أما الأشقياء من حجاب المحاكم، فكانوا يتلقون وابلا من الشتائم إذا ما ساءهم الحظ ولقبوه "بسعادة البيه". وفى اليوم التالى، لم يكن هناك أى إشارة واضحة لهذه الترقية فى الجرائد مما أدهش قطعا السيد مظلوم الذى

قام بإبلاغ كل معارفه. في هذه الأثناء قمنا نحن بنشر حقيقة هذه الأكذوبة مما أثار سخرية الجميع حتى إن جريدة "البروجريه إيجيبسيان" كانت ستقوم بنشر أصداء هذا الخبر... وبعد مرور أربع سنوات، قام الضباط الأحرار بالاستيلاء على السلطة وإلغاء الألقاب القديمة ومظلوم الذى كان يعتقد أنه أصبح باشا فى أربع وعشرين ساعة لم يعد يحظى حتى بلقب بيه!

فسألته:

- وهل ما زال حيا حتى الآن؟

- لقد أمضى هذا الشخص حياته يعكر صفو حياة الآخرين وقيل لى إنه مازال حيا يربض على ميراثه ويرفض أن يعطى أقل القليل لأبناء إخوته الذين يتسولون على بابه... لابد أنك تشعر بالجوع الآن؟ سأذهب لأرى إذا ما كانت البطة قد نضجت أم لا. وبعد لحظات، عاد بازيل وفى يديه طبق يتصاعد منه الدخان وكانت لورانس تتبعه وهى تخلع مريلة المطبخ، وكانت رؤيتها مفاجأة غير سارة لى إذ إننى كنت أعتقد أننا سنكون وحدنا.

أخرجت لورانس السيجارة من فمها وأطفأتها فى طفاية، فى هذه المرة وجدتها أكثر إثارة من المرة الأولى خاصة وأنها كانت ترتدى هذا البنطلون وهذه البلوزة ذات الصدر المفتوح. كنت أتخيلها وهى عارية بين ذراعى بازيل ببشرتها الناصعة البياض، وأردافها

الملفوفة، ونهديها المشدودين، وعطرها المختلط بدخان التبغ الأبيض... كم كنت أود أن أكون مكان ابن عمى، مهما كلفنى ذلك من تضحيات!

لقد كنت أحس أنها تعشقه؛ فقد كانت تنصت لكلماته وتطيل النظر إليه. وكانت تتصرف كصاحبة للمكان، ولكننى فهمت من خلال تفاصيل دقيقة أنها لا تسكن هنا... على كل فإن وجود سيدة برجوازية ثرية كهذى فى بيت يحوى هذا الأثاث المتواضع كان يثير الدهشة. ولقد قمت بشكرها على البطة بالبرتقال إلا أنها ردت قائلة:

- إن بازيل سوف ينقل الشكر لصاحب المطعم، إلا أننى أعترف أننى هذه المرة قد استطعت أن أشعل الفرن.

كانت تقول" هذه المرة " كما لو كان هناك العديد من المرات السابقة وفيما بعد، عرفت أن علاقتها ببِ ب لم تنشأ إلا منذ بضعة أسابيع.

أما بازيل فقد أخبرنا أنه ذات يوم قُدِمت بطة بالبرتقال خلال أمسية ثقافية بقصر الإليزيه، وحكى لنا فى كثير من الهزل كيف قام الجنرال دى جول باستقبال الفنانين المختلفين. ومن الواضح أنه قد ألم بهذه التفاصيل من شاهد عيان.

لم أجد أى تشابه بين بِ ب وبين خطباء طفولتنا، فقد كانت مداخلاتهم مثيرة، تستولى على الحضور بصوتهم الراعد، أما هو فقد

كان يتكلم فى هدوء لا يبدو مؤثرًا ولم يكن بحاجة إلـــى اســتعراض أو "إيمان" لكى يستمعوا له.

كانت هناك قوة تنبعث من هذا الرجل فهو ذو نظــرة عميقــة وساحرة غيرت من آرائى المسبقة وأحلام طفولتى. كم كان ابن عمى يبدو مضحكًا ومثيرا للسخرية وبعيدا كل البعد عن هذا الــذى يقــود الكاديلاك ويحيط به حشد من الخدم ويتعامل مع أفضل بيت للخياطــة فى باريس!

أشعلت لورانس السيجارة وهى تتناول الجبن وقالــت وســط نفثات الدخان:

- يا بازيل بخصوص بائعة الخبز الآتية مــن باســى... لقــد ندمت على إرسالها لك فى يناير.. ويبدو أنها قد جــاءت لتــستجديك ثانية فى الأسبوع الماضى، أفلم يكفها؟ لماذا قبلت طلبها؟

فهز كتفيم قائلا:

- لقد كانت بحاجة إلى المساعدة.

- وأنت ألم يكن لديك شيء لتطلبه منها؟

- ربما فى يوم ما...

(١٢)

لقد دخل بازيل فى حياتى، وكان ينتابنى شعور غامض بأنه لن يخرج منها أبدًا. فهو شخص غريب بحق كما قالت طبيبة الأمـراض الجلدية، ولكن لماذا غريب؟ فتساءلت بلكنة شبه مصرية: من أين وإلى أين؟ لقد كانت كلود بروشون دون شك متخصصة جيـدة وذلـك لأن حالة الأكلان قد تلاشت وفقا لتوقعاتها، أما تحليلاتها النفسية فلم تثبـت صحتها بعد، فقد يستحق بازيل نظرة أخرى. وهى علـى أى حـال لا تعرفه شخصيا، فمنذ متى يمكن تشخيص حالة مريض دون مقابلته؟

ومما زادنى اضطرابا كلمات صاحبة صالون الشاى جونفياف أش، فلماذا كانت تشعر أنها تحت رحمة ابن عمى؟ ألم يكـن الفـساد الذى اكتشفته لدى بازيل أكثر خطرًا من ذلك الفساد الغث والمـضحك لدى شخص مثل مظلوم بيه؟ لقد شعرت تلقائيا أننى مرتبط بهذا الرجل الذى كانت جونفياف قد وصفته بأنه محرك لعرائس الماريونات.

وفى شهر يونية، شعرت أننى مشتاق لبازيل، فاتـصلت بـه فأبدى سرورا لمكالمتى ولدى لقائى به سألنى فجأة:

- هل تحب التنس؟

فلدى أيها المحترم دعوات إلى الدور قبل النهائى غدا بعد الظهر فى رولان جاروس.

كان موعدنا أمام المدخل الرئيسى ولدى وصولى وجدته فى حوار طويل مع أحد حراس الجراج والذى قام بإعطاء بازيل رقما - دون شك رقم قيد - سجله بازيل على ظهر التذكرة.

كانت مئات المتفرجين قد اتخذوا من الوسط مكانا لهم، أما نحن فقد كان لنا أماكن مميزة بالقرب من أرض الملعب الممهدة. وتحت شمس ساطعة تذوقت للمرة الأولى جمالا وكأننا فى احتفال كنسى باريسى بهيج ومريح للنفس.

كان بازيل يعرف أناسا كثيرين، ومن بين أولئك الذين صافحوه تعرفت على مدير مجموعة صناعية وكاتب افتتاحية معتادا على الحوارات السياسية فى التلفاز، كما عانق بازيل اثنتين من ممثلات السينما استطعت أن ألامس يديهما. وبعد ذلك، جلس كل منا فى مكانه ليسمع قرع كور سانتانا فى مواجهة فرنسييه بيير دارمون. وكان الإسبانى الفائز فى رولان جاروس لمدة ثلاث سنوات- وكان يلعب باقتدار وحقق الفوز بسهولة فى الربع الأول وكذلك فى الثانى- مثيرا حماس المنصات. وفى الاستراحة، قام مغنٍ مشهور بتحية بازيل وأشار إليه ليلحق به فى اللوج. فى الحقيقةً، كنت مندهشا ومذهولا بل متأثرًا كثيرًا بعلاقات ابن عمى.

وبدأ الشوط الثانى من المباراة، وتناقصت قدرة سانتانا على الرد حيث بدأ يعانى من الحر الشديد. فانتصر عليه دارمون ست جولات متتالية، وفى خضم التصفيق الحاد اختفى بازيل وبحثت عنه بعينى فوجدته يتحاور مع عامل البار.

كانت النتيجة اثنين اثنين للطرفين! فقد استطاع الفرنسى أن يتعادل بجدارة مع منافسه الإسبانى. وعاد بازيل إلى مكانه قبل الضربة الحاسمة التى بدأت فى صمت مقدس وذهب الإسبانى يلهب حماس الجمهور بنجاحه فى توجيه الضربات فى مشهد عابر، ضربة تلو الأخرى، ثم وجه ضربة ضعيفة وفقد دارمون كل وسائله وأضاع النصر من بين يديه بعد مائة وأربعين دقيقة.

وعندما بدأ المشاهدون فى إخلاء المنصات، لحق موظف البار ببازيل وقضيا ما يقرب من ربع الساعة فى محادثة تبدو مريبة.

وعند الخروج لم أستطع أن أخفى فضولى فبادرته سائلا:

- عما كنتما تتحدثان؟

فرد قائلا:

- كنا نتحدث عن المطر وعن الطقس الجميل.

فتعلمت من ذلك ألا أوجه له مطلقا أسئلة من هذا القبيل.

هذا وقد رأيت بازيل عدة مرات فـــى صــيف ١٩٦٤، وقــد اختفت لورانس، ولذا فهو منذ ذلك الحين كان يخرج مع واحدة تدعى سابين كانت سمراء بقدر ما كانت الأخرى شــقراء، وســرعان مــا وقعت فى غرامها.

وعن سابين ليفانستين، فهى فتاة تخرجت من قــسم التــاريخ الطبيعى وتعمل فى حديقة النباتات وهى شديدة الحساسية، حيث يحمر وجهها لأقل انفعال. أما شعرها فقد كان أسود معقوصا مــن الخلــف ولها ساقان تثيران غيرة مارلين دى تريش، والله أعلم لمــاذا كنــت أشبهها بالخبيزة وشجرة المانجو والنعناع البرى.

لقد كان بازيل يصحبنى فى بعض الأحيان لتناول العشاء فى خمارة مونبرنص، ودائما ما كانت سابين تصاحبنا، حيث كانت تأتى مسرعة حاملة حقيبتها الصغيرة وشعرها يتطاير حتى إن بازيل كــان يسألها مازحا:

- أتهربين من أحد؟

كان بازيل يعرف كيف يتأنى فى كل الأحوال(الظروف) دون أن يعطى إيحاء بضياع الوقت. فقد كان يتجول فى باريس كمــا لــو كان فى نزهة تستوقفه أقل الأشــياء ليــشاهد واجهــات المحــلات أو ليتحدث لبرهة قصيرة مع أحد لا يعرفه. وفى الحانة وبينما نحــن نلتهم ما فى صحوننا، كان بازيل يتلذذ بكل لقمة وبكل رشفة كما لــو كان أمامه الدهر.

(١٣)

كان بِ بِ يحيرنى أكثر فأكثر، لدرجة أننى كنت أدون عندى فى كراسة ذات سلك، جمله وحركاته، بل وبعض المعلومــات التــى يدلى بها بعض الأشخاص الذين كانوا يعرفونه.

فإذا كان يعمل كل صباح لدى كاتب محامٍ فى الضفة اليمنــى من النهر، فما الهدف الحقيقى الذى يحمله على قضاء معظم فتــرات ما بعد الظهيرة فى شارع ريمون لوسوران؟ فلقد أبلغنــى فــى أول غداء تناولناه فى المطعم:

- إن هذا شيء آخر، شيء لى.

فى نفس اليوم، كنا قد تكلمنا عن السيد بيير لوساج الذى جئت لأحرس له شقته وسألت بازيل:

- هل هو عالم حقا؟

- نعم عالم طبيعة له قيمته فى مجاله، فهو قطب كما يقال.

- هل هو أحد أصدقائك؟

– ليس بالضبط، فمنذ عدة سنوات تكرم بتشغيل مساعد مختبر قمت بالتوصية عليه فى معهد علم المحيطات وظلت علاقتنا مستمرة، ورغم مزاجه المتقلب، فإنه عالم بحق. وفى كل مرة يسافر فيها، كان يطلب منى إيجاد حارس لشقته، فلعل ذلك لم يضايقك؟

خدمة، خدمات... هكذا إذن كان بازيل يلجأ فى كل مرة إلى الأشخاص المدينين له. ألم أدخل أنا بنفسى ورغمًا عنى فى هذا المضمار؟ فقد ساعدنى لإيجاد مسكن ليطالبنى بإلحاح فيما بعد ودون أى مكافأة مالية، وحتى قلم الحبر الذى أهداه إلى السيد لوساج كان إخلالا بنظام بازيل الذى لم أكن أدرك الهدف منه.

أما المرة الثانية، فقد كانت فى مباراة رولان جاروس بعد وقت قليل من نصف المباراة عندما سألته بصراحة:

– كيف تتصرف يا بازيل لتلبى كل الطلبات التى ترجى منك؟

فدهش من سؤالى ورد قائلا:

–أولا أنا لا ألبى كل الطلبات، ولكننى فى الحقيقة أعرف عددا لا بأس به من الأشخاص الذين سبق لى تقديم خدمات لهم والذين غالبا ما يجدون متعة فى مساعدتى متى أقصدهم فى عمل ما.

– تعنى أعطِ تُعطَ؟

– يا له من تعبير سخيف!

- كنت أقصد أن أقول إن هناك مقابلا ....

- ماذا ... إنه يحدثنى الآن عن المقابل! مقابـــل لمـــن؟ بـــل مقابل لأى شيء؟ أيها الاقتصادى الكبير، احترس لما تقــول! فوقـــع الكلمات أقوى من وقع الأرقام.

وبعد قليل سألنى:

- ولكن لماذا تطرح كل هذه الأسئلة؟ إن قوانين الـــسوق لـــن تتضح لك من خلال إجاباتى.

فى الحقيقة، لم أكن أهتم بقوانين السوق! فتحت تأثير جابريال تارد وجهت كل اهتماماتى لعلم الاجتماع وعلى أى حال من الأحوال كان مسار بازيل هو المسار الذى يغرينى.

وذات مساء كنت قد لحقت ببازيل فى السينما، فإذ به يبـــاغتنى غتنى قائلا:

- يبدو أنك قد تعرفت على جونفياف.

- جونفياف؟

- صاحبة صالون الشاى.

فذهلت وكنت كطفل ضبط متلبسًا، فكيف عرف بازيل أننى قد قابلت السيدة التى تجمع الأثاث القديم؟

انطفأت الأنوار فلم أجب على الفور وبينما كانت تُعرَض مقتطفات من الأفلام الحديثة لم أكف عن التساؤل؟ هل يمكن أن يكون على علم بزيارتى لجونفياف على الرغم من أنه لم يبعث أحدا ليتتبعنى! إلا إذا اعتقدنا أن لديه جاسوسا كان يجوب المكان - ربما كان خادمًا؟ إن كل الشواهد تقول إن صديقة الطبيبة هى التى قد أخبرته بذلك، ولكن لماذا؟

أعتقد أن جونفياف أش بعدما وصفت بازيل بأنه محرك للعرائس قد ثرثرت قائلة:

- يوجد فى كل ذلك شيء غريب، فبازيل باتركانى ينتمى لهؤلاء الأفراد الذين لا يستطيعون أن يعملوا إلا فى الظلام كما لو كان النور يرعبهم.

أما هنا فى هذه الصالة المظلمة، كان لهذه الملحوظة وقع غريب؛ فقد عادت إلى ذاكرتى أحاديث أخرى وأخذت تتوالى وتختلط فيما بينها حتى أن الفيلم لم يعد على الشاشة بل كان فى رأسى.

وما إن بدأت الاستراحة حتى بادرته بالحوار دون أن أترك له فرصة ليعيد سؤاله مرة أخرى فقلت:

- فى الحقيقة إننى قد ذهبت لصالون الشاى.

- لقد تركت لديها انطباعا جيدا.

هكذا قال بازيل قبل أن ينادى بائعة الأيس كريم التى اقتربت منا.

وإلى هنا توقف بنا الحوار، ليتناول هو الفانيليا وأنا الشيكولاتة.

.

(١٤)

فى نهاية المطاف، لم أستطع أن أعرف لماذا ترك ب ِب مصر، فترى هل كان يعرف هو نفسه السبب؟ من الصعب أن يستطيع أحد التمييز بين ما كان يرفضه فى مصر وبين ما يشده إلى الجانب الآخر من البحر المتوسط، فلم يكن رحيله عن مصر يمثل رحيلاً نهائيًا فى مخيلته ولم يكن هناك أى شيء ليمنعه من العودة إلى القاهرة إذا لم تكن فرنسا قد أعجبته أو لفظته.

لقد رحل بازيل فى ربيع عام ١٩٥٢، فى وقت لم يكن أحد يفكر فيه فى الهجرة. ولقد كنت أعرف ذلك لأننى سمعت أكثر من مرة فى هليوبوليس أن هذا الرحيل قد أدهش كثيرا من الناس. فما الشيء الذى ذهب يبحث عنه ذلك الصبى وحده وهو فى الثامنة عشرة من عمره فى أوربا فى الوقت الذى كان كل شيء فى بلاده يبتسم له؟، فقد كان يتمتع بلقب وكذلك بجزء من ثروة جده فرديناند بتركانى، وكان حاصلاً على ليسانس فى الحقوق بالإضافة إلى جاذبية لا تقاوم، أى باختصار "شاب مناسب"، فهناك أكثر من فتاة كانت تذوب حبًا فيه بدءًا من زينة دكاش المتعجرفة التى كان ظهورها بالمايوه فى حمام سباحة نادى سبورتنج يحدث الهوائل، أفلم يكونوا

يقولون إنها عندما يئست من أن تجذب انتباهه قامت بابتلاع علبتين من المنوم ليلة عيد الميلاد؟

بل إن الأسطورة التى كان يتناقلها الناس تقول إنه عندما ذهب بازيل مع أصدقائه لزيارتها فى المستشفى ومعه باقة ورد، فقدت زينة وعيها لدى رؤيتها له.

إن رحيل بازيل جعل الكثير من شباب هليوبوليس أيتامًا، حيث كانوا يعتبرون هذه الضاحية بمثابة حديقة غناء فى صحراء القاهرة، فقد كانوا يتحدثون عنه كأنه كوكب متلألئ، ويشبهون وقته بعصر جميل لم أشهده لأننى كنت ما أزال صغيرًا.

وفى نهاية الخمسينيات وبينما كان الوضع يزداد توترًا فى مصر، كان الآخرون ينظرون إلى بازيل وكأنه رائد بل نبي. وكان رحيله المبكر مثار حسد فى ظل هذه الظروف الطيبة، وكانوا يمتدحون جسارته ونفوذ بصيرته.

لقد رحل بازيل عن مصر بعد عدة أسابيع من حريق القاهرة الشهير؛ وذلك دون شك لأنه أدرك أكثر من غيره انقضاء عهد وبداية عهد جديد. ولقد تحدث معى ذات مرة بصوت لم أعتده من قبل حيث كان يشوبه حنين إلى ذلك الوقت:

– لقد تبدل الزمن وذهبت معه كنوز ثمينة لا تقدر: يسمح هذا الطيش وهذه اللامبالاة لأشخاص مختلفين أن يعيشوا جنبًا إلى جنب،

نعم جنبًا إلى جنب وليسوا معًا، أى يختلطوا ولكن لا يمتزجوا فلم يكن الناس يرون القاهرة على أنها قطعة من باريس ولن تكون هكذا يومًا ما، ولكن فضلاً عن هؤلاء الأوربيين، الذين نُهبت أموالهم وحرقت فى هذا السبت الأسود المشئوم، ألم يكن يستهدف هذا الحريق أناسًا أمثالنا – من أقليات مسيحية – متمصرة كانت أو متغربة؟

ولكن بازيل فكر فى الرحيل قبل هذه الأحداث، وكان الظن يراودنى من أن صبغة جده بتركانى كانت تلازمه وأن ظله يثقل كاهله. ألم يكن يريد أن يطير بأجنحته فى سماء أكثر صفاءً وأكثر تحررًا؟ حيث إن البقاء بمفرده فى باريس دون أن يعرفه أحد، كان يسمح له بخلق شيء جديد، فلن يحمل همّ نظرات الآخرين. وعلى حد قوله، لقد استولت عليه باريس منذ اليوم الأول، فقد كان يجوب كل أرجاء المدينة ولا يكف عن اكتشاف أحشائها، وقد كان يقول متلاعبًا بالكلمات:

– لقد كان المترو ينقلنى دائما.

ففهمته تمامًا، وكانت هذه المجاديف تبزغ فى الظلام الحالك بانتظام مذهل وكانت تجسد فى عينى كل ما كان ينقص الشرق، وفى نهاية الرصيف كان ثقّاب التذاكر جالسًا على سجادة من التذاكر المثقوبة وهو يثقب دون كلل أو ملل التذاكر ونظره متجه إلى مكان آخر. كانت المركبات فى هذا العصر مملوءة بالخشب والضجيج ويفوح منها رائحة كريهة وغريبة تلك هى رائحة باريس. وعلى أى

حال كان يجب أن ندور فى رحى هذه المدينة المتحاملة نسبيًا على الأغراب. فقد أدركت عندما سمعت قصص بازيل، أن ما عاشه من التجارب يشبه كثيرًا تلك التى عشتها أنا على الرغم مما طرأ على فرنسا من تغيير طفيف خلال هذا العقد من الزمان. إن المصرى الذى كان يطلب "شاليموه" بدلاً من قشة على سطح مقهى أو "باتيه" فى مخبز، كان من المحتمل جدًا أن يتعرض لنظرات الدهشة واحتقار لا نهائى وقد حكى لنا بازيل قائلا:

- لقد قمت بطلب ورق صحى من صيدلية، فردت على الصيدلانية بجفاء "ليس لدينا هذا المنتج".

وعندما كان بازيل يعود بذاكرته إلى الماضى، كان يسخر من ذلك لأنه عرف الآن أدق أسرار هذه الأرض التى تبنته.

كان انتعاش باريس يسكر بازيل، حتى إنه كان يشعر أنه فى قلب العالم. فمن الناحية الطبيعية، كانت هذه النقطة الافتراضية فى البحر المتوسط فى مكان ما بين الجزر اليونانية والإسكندرية، ففى هذا المكان يصل الهواء المنعش إلى ذروته، ولكن عقليًا وحسيًا كان ملتقى العالم يوجد هنا بين الحى اللاتينى وقصر التويلرى.

لقد اندهش بازيل عندما وصفت سابين باريس بأنها مدينة مجهولة الهوية حتى إنه قال:

- فى باريس دائمًا ما يكون الناس حولنا فلا نشعر بالوحدة.

كان بازيل يستيقظ مبكرًا، سعيد القلـــب، شـــغوفا بالمعرفـــة واللقاءات، وكل يوم يمثل له وجودا كاملا، فقد كان يهيم على وجهه، تحمله باريس بصخبها وعطرها وحماسها.

(١٥)

كنت أتساءل كيف يمكن لمهاجر أتى لفرنسا وحيدا دون سـند، أن يصل لمثل هذا المركز فى عشر سنوات؟ فكان بازيل يجيب قائلاً:

- لقد كنت محظوظًا.

وعلى الرغم من أن إجابته كانت تحوى شيئًا من الحقيقـة إلا أنها كانت مختصرة بعض الشيء.

بعد مرور أقل من أسبوعين على وصوله إلى بـاريس وفـى صباح يوم من أيام شهر أبريل ١٩٥٢، كان بازيل يتنزه تحت بواكى شارع ريفولى عندما ارتطمت قدمه بحقيبة صغيرة من الجلد الأسـود وبداخلها مستندات وعلى ظهرها كارت ملصق عليه اسـم صـاحبها وعنوانه وهو: "١١ إدمون دورمينيو، ميدان فوندوم"، فتـردد بِ ب للحظة ووجد أنه بدلاً من تسليمها للشرطة من الأسهل أن يذهب إلـى هذا العنوان الموجود على بعد مائتى متر من هذا المكان.

وهناك فتح له الباب رجل يتصبب عرقًا كما لو كـان علـى وشك أن يصاب بأزمة عصبية، وعندما لمح الحقيبة الوزارية، عانق ابن عمى صائحًا:

- إنك أنقذت حياتي! إنك أنقذت حياتي!

وأسرع إلى حجرة مجاورة وعاد بعد لحظات وهو يمسك بيده نقودا ويقول:

- خذ، هذه لك.

فرفض بازيل بأدب ولكن الرجل الذى يبلغ من العمر ستين عامًا كان يصر بقوة، وقال:

- إنك لا تتخيل ما تمثله تلك المستندات بالنسبة لي! فبدونها كنت سأفقد ثروة!

ولكن بازيل كان مصممًا على ألا يأخذ شيئًا، فرد عليه الرجل قائلاً:

- إذًا أقسم لى أنك ستتصل بى إذا احتجت يومًا إلى شيء، فربما أستطيع مساعدتك!

فاستأذن بازيل من السيد دورمينيو ووعده أنه سيتذكر ذلك الوعد.

وبعد ثلاثة شهور، لم يكن بازيل قد وجد عملاً فقد انغلقت الأبواب أمامه واحدًا تلو الآخر، حيث كانت جنسيته المصرية تمثل عقبة كبيرة فى طريقه. ففى مكاتب المحامين، كان هناك رجال متكبرون وضحوا له بكل جفاء عدم احتياجهم لخبرة مثل خبرته.

وعندما تذكر اقتراح دورمينيو، ذهب إلى ميدان فوندوم فـي صباح يوم الاثنين، لم يتعرف ذلك الرجل البالغ من العمر ستين عامًا عليه بسرعة ولكن بعد عدة ثوان صافحه بحرارة وصـاح لزوجتـه قائلاً:

- تعالى يا هيلين! إنه الشاب الذى أنقذ حقيبة حصة الـشريك فى رأس المال!

ولفرحته بأنه سيرد له الجميل، قضى دورمينيو جزءًا من فترة ما بعد الظهيرة بأكملها يجرى الاتصالات مع رجال الأعمال. وفـي اليوم التالى، بدأ بازيل العمل لدى كاتب محام فى شارع فيفيان.

وكان بذلك سعيد الحظ، وذلك لأن السيد بليسيه بونتـال كـان مغرمًا بمصر التى لن يتمكن من زيارتها مطلقًا، حيث إنه كان يخاف من ركوب الطائرة ولا يتحمل السفر بالسفن. وخلال أسـابيع، كـان السيد بليسيه بونتال ينزل على بِ بِ وابلا من الأسئلة عن الفراعنـة والبطالمة، فقد كان حتى ذلك الوقت يجهل تمامًا تاريخ مصر فى تلك الحقبة. وربما كان من الضرورى أن يكون المـرء أوربيًـا ليهـتم بالأوعية الفخارية والكتابة الديموطيقية وأوزوريس وأمنحتب...

ولعدم إلمامه بعلم المصريات، كان بازيل يتحدث فى سـعادة عما كان يعرفه مثل الهواء اللطيف الجاف والحار الذى كـان يهـب على صحراء الجيزة، وشواطئ الإسكندرية، وكذلك سينما الحـدائق

المنتشرة فى هليوبوليس، ونزهات الفلوكة فى ضوء القمر... فقد كان كاتب المحامى يبحر إلى آفاق جديدة دون تغيير مقصده.

ومنذ أن وجد عملاً شعر بازيل أنه يحتضن باريس، فلم تعد نظرته نظرة عابر السبيل، هذا الذى كان يهيم على وجهه لا يعرف مقصده وعندما استقر به الحال شعر بنشوة الملاح.

وإذا كان اهتمام بازيل بالعمل التوثيقى معتدلاً، فقد كان نهمًا حقًا فى تواصله مع الزبائن. فمع كل واحد منهم، كان بازيل يكشف الجانب الأكثر تميزًا والأكثر غموضًا والأكثر جاذبية، ونادرًا ما يكون هناك أشخاص لا يتمتعون بخصوصية ما، ففى الحقيقة كانوا جميعهم أناسًا مهمين.

كان من اليسير على بازيل إقامة العلاقات فازدادت معارفه شيئًا فشيئًا خارج نطاق القاعة، فلقد كان دائمًا مستعدًا لأن يرى فيلمًا أو ليشرب فنجانا من القهوة أو ليصعد فيأخذ آخر كأس... فهو يتمتع بحيوية فريدة تسمح له بالرقص حتى الثانية صباحًا قبل أن يأخذ حساء بالبصل فى مطعم الهال ويضحك كل الحاضرين بحكاياته.

وفى الأمسيات الباريسية، كان الفرنسيون يقدرون نكات بازيل المصرية، بل كانوا أيضًا مستمتعين بجمال لكنته ومنبهرين ببراعته فى استخدام اللغة الفرنسية، حتى إنه كان يعود إلى منزله ومعه دعوتان إضافيتان ونصف دستة من أرقام التليفونات الجديدة.

ولأنه كثير الفضول، فلم يكن ينسى أى شيء، فقد كان أيضا يتذكر جيدًا الأسماء والوجوه والمواقف المتعلقة بالعمل أو العائلية، فهو كالرادار المتيقظ دائمًا يلتقط الكلمات والأفكار والمشاعر، حيث إنه فُطِر على الارتجال الجذاب.

وفى صيف ١٩٥٣، كان ابن أخ السيد دورمينيو وهو طبيب أمراض عصبية مبتدئ، يبحث دون أمل عن مقر لعمله بالقرب من حديقة مونسو؛ فجميع الأماكن التى عُرِضت عليه فى هذا الحى الراقى، كانت ذات أسعار خيالية. وبازيل الذى كانت له آذان تسمع كل شيء، استطاع أن يجد له الجوهرة النادرة، فها هى شقة تضم أربع حجرات فى شارع ماليزارب العريض الذى تكتنفه الأشجار ومالكها سفير على المعاش كان يريد أن يتخلص من الشقة على عجل ليلحق بممثلة برازيلية فى ريو؛ حيث إنها كانت قد تسببت فى قلب حاله. وبعد ساعتين، تمت الصفقة وكان المطلب الوحيد لطبيب الأمراض العصبية هو تقديم خدمة لبازيل الذى ألح عليه بعد عدة شهور فى أن تقوم مستشفى سانت آن باستقبال مريض من بلدة ليل مصاب بهذيان الهلوسة. وفى السنة التالية وبواسطة بازيل أيضًا، قامت عائلة المريض المالكة لورشة أدوات تجميل بتوظيف السفير السابق صاحب الشقة وكيلا لها فى ريو وذلك بعد أن تركته صديقته البرازيلية فجأة...

وهكذا ولد نظام بازيل.

كان بازيل يتلقى العديد من الاتصالات فى القاعة لأسباب ليس لها صلة بوظيفته ككاتب المحامى، وبين كل حالتين، كان ينبغى له تسوية بعض الأعمال فى الخفاء حتى إن السيد بليسيه بونتال كاد أن يشك فى أمره على الرغم من أنه قد لجأ إلى هذا المساعد المهم؛ وذلك ليجد له خادمًا أو طاولة بليارود إنجليزية مستعملة.

وفى نهاية سنة ١٩٥٥، طلب بازيل أن يعمل موظفًا لنصف الوقت. وقد سمح له ما تبقى من ميراثه أن يشترى شقة فى شارع جيه لوساك كما كان يستطيع أن يستكمل مرتبه بفوائد بعض السندات البنكية.

ولكن بقى لبازيل أن يجد مكانًا ليقابل فيه الأشخاص الذين يرجون منه قضاء حوائجهم، وذلك لأنه لم يكن يريد أن يستقبلهم فى منزله من جهة، ومن جهة أخرى كان لا يحتمل أن يقضى ساعتين أو ثلاث ساعات يوميًا فى المقاهى المليئة بالدخان الأسود، ولذلك قرر أن يستأجر مكانًا متواضعًا قريبًا من منزله وكان ذلك فى أول يناير ١٩٥٦، حيث استقر به المقام فى شارع ريمون لوسوران. لم يكن لهذا المكتب مواعيد عمل محددة ... فلم يكن بازيل يستقبل أحدًا إلا بميعاد سابق وكان ذلك.فى فترة ما بعد الظهيرة ولا مانع من أن يتغيب أسبوعا أو أسبوعين وأحيانًا أكثر من ذلك.

لقد كانت سلاسل الخدمات تُنسج وتتشابك دون هدف معلن، وهذا ما كنت أطلق عليه النظام البازيلى لعدم توافر ما هو أفضل.

(١٦)

لم يمكث بازيل طويلاً ليكتشف أن باريس كانت تتخللها آلاف من الشبكات الخفية نوعًا ما، والتى كانت تقدم لأعضائها وظائف ومزايا وذلك على غرار اتحاد قدامى المحاربين، الذى كان يتمتع بنفوذ داخل وزارة العدل. ولكن كان الأفضل من ذلك الانتماء لجماعة الأحرار السرية أمام المحاكم التجارية... لقد كانت المحليات تتواصل فيما بينها عن طريق أشخاص رئيسيين ذوى انتماءات متعددة. وكان هذا الجانب الباريسى الخفى يشبه المترو بمحطاته ووصلاته وتحويلاته. ومنذ أن أصبح بازيل طوبوغرافيا منقطع النظير، لم يكف عن اكتشاف عالم متنامٍ ومتغير على نحو دائم وعشوائى؛ ذلك العالم الذى كان يحمل له كل يوم مفاجآت عديدة.

كان الحضور الغفير لسكان مقاطعة أوفرنيا، فى أرقى المطاعم والمقاهى بالعاصمة، واضحًا تمام الوضوح. ولكن هل كان أحد يعلم أن عملاء فندق دروو كان معظمهم من الحانات سافوا؟ وهل كان أحد يعلم أن مثل هذا الوزير وذاك المطرب كانا يوجدان فى أركادى، وهى شبكة شبه سرية للشواذ؟ وهل كان أحد يعلم أن ذلك البنك البروتستانتى يساند فى الخفاء النساء المناضلات من أجل الأمومة السعيدة أو جمعية التخطيط لمستقبل الأسرة؟

وحيث إن بازيل لم يكن ينتمي لأى منظمة أو لأى رابطة أو جمعية سرية، فقد كان يحاول أن يزج بنفسه فى كل مكان، وكان هذا الأمر يتم بطريقة طبيعية جدًا، فقد كان بازيل يقوم بتقديم خدمة لشخص ما، الذى بدوره يقوم بتعريف بازيل على أعضاء آخرين لشبكته، وبذلك كان ابن عمى يختلط عن قصد بأشخاص لم يصبحوا بعد من ذوى النفوذ، ولكن كان لديهم وقت كاف ولم يكونوا يعاملونه بتعجرف أو بتكبر، فهم إما مسئولون مقالون أو نواب فشلوا فى الانتخابات أو مساعدون أو معاونو سكرتارية، أى شخصيات ثانوية على اختلاف مشاربهم... أيًا ما كان مركزهم فإن ذلك لا يهم، فهم ليسوا إلا جسورا، فإذا ما وصل يوما ما أحد منهم إلى السلطة كان حتمًا أن يتذكر الأوقات الجميلة والاهتمام الذى كان بازيل يوليه إليه وكذلك الخدمات التى قدمها له.

وخير مثال على ذلك رابطة قدامى الطلاب فى مدرسة الهندسة، فقد شاءت الصدف أن يلتقى بازيل فى إحدى الأمسيات الباريسية بمهندس مدنى كان يساهم فى مجلة "لا جون إيه لا روج" دون أن يكون عضوًا فى مكتب الرابطة، حيث قدم بازيل لهذا الرجل الآتى من مقاطعة بروتانيه الفرنسية، أفضل وجبة إسبانية فى باريس (البايلا) والمكونة من أحسن أنواع السمك، كما صحبه إلى مطعم

روسى قابع على جبل مون مارترا. أما فى المرة الثالثة، فقد اقترح هذا المهندس على بازيل أن يتناول الغداء فى دار المهندسين الموجودة فى الحى السابع. وهناك اكتشف بازيل مبتهجًا صالونات مطلية وأوانى مائدة مزينة بملابس عسكرية لعصور مختلفة، وفى المقهى تعرف بازيل على بعض الأشخاص من بينهم شخص مسئول عن شركة رينو للسيارات مغرم بالساعات القديمة، فقال بازيل وهو يذكر محلا غير معروف يشبه مغارة على بابا فى منطقة المحطة:

- قطعًا إنك ترددت على هذا المحل فى جنيف.

فَذُهِل المهندس وقال:

- يا للخسارة! فى جنيف ويقال إننى كنت هناك فى الشهر الماضى.

- إن صاحب هذا المحل يزور باريس من وقت لآخر، وقد يكون غريبًا نوعًا ما؛ لكنه لطيف ويمكننى أن أدعوه إذا أردت.

وبعد أسابيع قليلة دُعِى بازيل لتناول العشاء فى شقة تقع فى سان كلو، حيث كانت الجدران تغطيها ساعات حائط قديمة، حتى إن إحداها كان يرجع عهدها إلى الإمبراطورية الأولى، حيث سلمها مؤخرًا تاجر الأنتيكات فى جنيف.

كان المهندس يدير ورشة للميكانيكا فى بلدة بيلون كور، وعن طريقه استطاع بِ بِ توظيف عشرات من العمال فى الأعوام التالية.

وهكذا، أصبح بازيل ضيفًا منتظمًا فى دار المهندسين. وكانت علاقاته تتسع أكثر فأكثر وكأنه عضو ينتمى إلى هذه الرابطة، وكانوا يسألونه بانتظام إلى أى دفعة تنتمى، فكان يرد قائلاً وهو يغمز بعينه:

- إلى دفعات مختلفة.

ولكن الأشياء لم تكن لتمر بهذه السلاسة، فإذا كان بازيل منذ منتصف الخمسينيات قد انضم إلى الاتحاد القومى للطلبة الفرنسيين للعمل الكاثوليكى فى عدة روابط يهودية، فإنه لم يستطع أن يجرى اتصالات حقيقية لا مع الحزب الشيوعى ولا مع دوائر البوجاديزم (حركة لصالح صغار التجار)، فهذا الرجل الذى ينتمى للوسط كان يتخبط بين الأطراف.

ولم يكن بازيل يهتم بالإيدولوجيات، وكان قليل الميل إلى الفكر التجريدى، هذا إلى جانب أنه لم يكن يشعر بالراحة عندما يتعامل مع الأوساط الفكرية، ولم تكن مراكز النفوذ الكبرى كالجامعة ودور النشر والمؤسسات الصحفية، لتفتح أبوابها له إذا لم يكن قد قدم لها آنفًا بعض الخدمات: فقد تمكن من دخول هذه القلاع لدى إيجاده حارسا لبيير لوساج أو سيارة مستعملة لأستاذ فى السربون.

ولكن دخوله إلى محلات جاليرى لافايت، كان أكثر يسرًا فقد تزامن مع طرد اليهود من مصر بعد أزمة السويس سنة ١٩٥٦، فقد تقدم عدد كبير منهم إلى هذه المحلات. وبفضل معارف قديمة، ساهم بازيل بنصيب كبير فى تكوين شبكة للتوظيف؛ حيث كان الوحيد بين زبائن المحل الذى يُقَبل البائعات السمروات الجميلات ذوات اللكنة الغنائية، اللائى كن يتبادلن الحكايات حول آخر فصول الصيف فى الإسكندرية والضحكات العالية تختلط بدموعهن القليلة، وأعترف أننى أطلت الوقوف غير مرة أمام بعض أروقة الجاليرى فقط لأتمتع برؤية وسماع هؤلاء العائمات الملونة شفاههن بروج" بيزيه".

(١٧)

- آلو بازيل باتركانى يتكلم

فاندهش الشخص اللبنانى.

- ربما تتذكرنى يا سيدى الفارس فقد قلت لى إنك نائب رئيس مؤتمر سان فان سون دو بول فى لبنان، أليس كذلك؟

فأجاب صديق والدى بصوت حذر يكاد يكون عدائيًا:

- نعم إنك على حق.

فبادره بازيل قائلاً إليك موضوعى:

هناك سيدة مسنة تسكن فى تولوز ترغب فى أن تخصص مبلغاً كبيرًا لجمعية كاثوليكية تمارس نشاطها فى الخارج ففكرت فى شخصكم.

لم تكن هذه لهجة رجل يريد شرًا أو مزاحًا، فإذا بإميل الفارس يوضح صوته ويغير نبرته قائلاً:

- تقول مبلغا كبيرا؟

- نعم ويمكن أن نتقابل إذا أردت.

وفى اليوم التالى، عاد رجل الأعمال اللبنــانى مــن شــارع ريمون لوسوران بعد مقابلة مع بازيل دامت ساعة ونصف وقد انقلب حاله، إن جلسة خاصة مع البابا لم تكن لتؤثر فيه على هــذا النحــو. ولكن ابن عمى كان قد طمأنه وهو يعرض عليــه بكلمــات بــسيطة وواضحة عرض سيدة تولوز، ثم أمتعه بقصة مضحكة حول فاعلــة خير من جنيف كانت ترغب منذ سنين فــى تمويــل بنــاء مدرســة إكليريكية فى جزر جالاباجوس، حيث كان بازيل قد سألها متعجبا:

- فى جالاباجوس! لكن يا سيدتى لا يوجد أصلاً أى كاثوليكى هناك.

فأجابته قائلة:

- بالضبط، ولكن هذا المركــز ســيدفع بالكــاثوليكيين إلــى المجيء.

وقبل أن يقبل إميل الفارس العــرض الــذى قــدم لــه، قــام بالاستعلام تفصيليًا عن نشاط محدثه، فلم يكن يستطيع أن يتخيــل أن بازيل يعمل شيئا دون مقابل، حيث إن هذا العمل التطــوعى الخفــى كان يبدو للفارس شيئًا عظيما للغاية. وقام إميل بمقابلــة بِ ب مــرة أخرى وأخذ يسأله لمدة ساعة ثم رجع والدموع فى عينيه معلنًا أنــه على استعداد أن يقدم له أى خدمة فى أى وقت فى بيــروت، وفــى

باريس وفى أى مكان آخر. وفى الشهر التالى، قال لى إميل الفارس وهو يسلمنى طردا صغيرا أرسلته لى العائلة:

- لقد كنت مخطئًا فى تقديرى لابن عمك، فهل تعرف أن بازيل يخصص نصف وقته لخدمة الآخرين دون أى أجر، فهو لا يقوم فقط بفعل الخير ولكنه يدفع الآخرين لعمله، إن هذا الرجل لقديس.

فبعدما كان يعامله بوصفه لصا أو فاسقا، هاهو ينعم عليه بهالة القداسة!

حيث أضاف قائلاً بنبرة العارف:

- صدقنى إن هناك أناسا تُطَوَّب لأفعال أقل من ذلك بكثير، وأخذ يشرح شرحًا علميًا:

- يعمل هذا الرجل فى الظل، بالطبع يحتاج القديس للصمت والفطنة والتواضع. وإذا كانت القداسة بطولة، فهى لا تتجلى من خلال أعمال غير عادية، بل تظهر فى أبسط مظاهر الحياة اليومية ودون جلبة، ألا ترى ذلك.

لقد كان بازيل باتركانى يضلل محدثيه تمامًا كما كان يفعل القديس فرنسوا والقديس برنار والقديسة تريزا دافيلا...

وأكمل الفارس حديثه قائلاً:

- إن القديسين لا يحاولون أن يقنعوا، ولكنهم يعملون ويعطون المثل، فهم يتمتعون بحنو عفوى ولكنهم يسلكون طرقًا تختلف عن طرق العامة. فهم لا يخضعون للمعايير، حيث إنهم لا يقعون تحت طائلة القانون إلى حد ما، ولذا كما ترى فإن عصرهم لا يفهمهم، وهم أنفسهم يجهلون قدسيتهم التى لن تعرف إلا فيما بعد.

القديس بازيل! إن هذه التسمية لا تتناسب مطلقًا مع الصورة التى كنت قد رسمتها فى مخيلتى لابن عمى، بل إنها تتناقض تمامًا مع ما كنت أعرفه عنه وفى نظرى يعيش القديس فى نشوى دائمة وقد تكون مؤلمة؛ فهو يحمل العالم على كتفيه وكل عطاياه تنبع من حرمان، فهو يتجرد من كل شيء ليقدم قميصه لمن هو أكثر منه فقرًا، وأعماله لا تجلب له أى مجد وغايته الوحيدة هى رضاء الله، إن القديس يعطى دون حساب ولا يتلقى أى مقابل وهو على أى حال لا يحتاج لشيء، فهو إنسان سامٍ لا يضاهيه أحد من معاصريه.

أما أنا فكنت أرى بازيل بعيدًا كل البعد عن هذه اللوحة السماوية.

(١٨)

وبخصوص الحادثة التى وقعت لزميل فى الكلية أثناء مشاجرة مع رجال الشرطة، قال بازيل:

- أحضر لى هذا المستند وسأرى ماذا أستطيع أن أفعل.

وأعطانى بازيل موعدًا فى قهوة لا تبعد كثيرًا عن منزله، وعندما ذهبت اندهشت حيث وجدته جالسًا على منضدة مع لورانس موبرجيه التى كانت متألقة وتضم بين شفتيها سيجارة وكان عطرها وأناقتها وهيئتها المثيرة تجعلنى مضطربًا، وبصوت شارد سألتنى عن أخبارى إذ كان من الواضح أن هذا السؤال لم يكن ليؤرق نومها...

ومن خلال عبارات قليلة فهمت أنها لم تعُد إلى بازيل فهى تعيش مع جون بارترون الذى كان يشغل وظيفة مستشار قانونى. وقد قالت لبازيل:

- لا بد أن أعرفك عليه لذا سأقيم حفلة عشاء.

وفى جمعنا الثلاثى كنت أشعر أننى الشخص الأقل ارتياحا.

كانت هناك مناسبات أخرى تتيح لى معرفة عاشقات بازيل السابقات اللائى ما زال يحتفظ بعلاقات ممتازة معهن؛ إما بإسداء خدمات لهن أو بعدم تردده فى طلب أى خدمة منهن. وأحيانا كان يذكر هذه أو تلك بكل تلقائية قائلاً:

- فى سنة ١٩٥٩ كانت لى صديقة التى ...

لا لم يكن بازيل رجل العشق الأوحد. وعلى أى حال، لا أحد يستطيع أن يتخيله فى عش الزوجية مع زوجة وأولاد. وفى حين يستمتع الرهبان بحرية العزوبية كانت حرية بازيل تكمن فى علاقاته المتعددة فكان مخلصًا ولكنه لا يقتصر على واحدة.

ولو كان إميل الفارس قد تحمل عناء متابعة مغامرات ابن عمى العاطفية، لقام دون شك بمراجعة حديثه حول مفهوم القدسية، فلقد كان بازيل يعمل ما يحلو له، وقد رأيته عدة مرات يبذل قصارى جهده ليساعد سيدة جميلة أو على العكس ليصد شخصا لحوحا فى مطلبه ممن لا تروق له هيئتهم؛ فلم يكن عابدًا فى جب الأسود، ولم يقبل جروح مرضى الجذام ولم يكن شهيدًا ولا صوفيًا ولا من الرهبان الذين يستجدون معونة الفقراء: كان لا يعرف التضحية أو الجلد.

والآن اعتدت الذهاب ثلاث مرات إلى أربع شهريًا إلى شارع ريمون لوسوران فى بداية المساء، فإذا وجدت بازيل مشغولاً مع

زائر، كنت أجلس فى صالة الانتظار وإلا كان يستقبلنى فى مكتبه وكنت أحضر بعض مكالماته الهاتفية.

وذات مساء دخلت عليه بينما كان مشغولاً تمامًا بمكالمة هاتفية؛ فلم يكن ذلك بازيل الذى أعرفه، لقد كان منتصبًا مقطب الحاجبين وكان قد أبعد السماعة عن أذنه حتى لا يصمه صراخ الصوت وقال مرتين:

- لا يا جونفياف إنك لست على حق!

وبعد برهة قال:

- أؤكد لك أنك مخطئة، إن تاجر الأنتيكات الموجود فى شارع السان لم يبع مطلقًا هذه الأثفية.

وأدركت فجأة أن جونفياف أش مالكة صالون الشاى هى التى كانت تصرخ فى التليفون وعندما وجدت نفسى محرجًا، أشرت له بأننى سوف أذهب لشراء جريدة، وخرجت ولدى عودتى بعد ربع ساعة، كان بازيل منكمشًا فى مقعده، يمد قدميه على المنضدة، حيث كان يتحدث بهدوء مع شخص آخر فلم أسأله عن المشهد السابق ولم يحك لى عنه شيئًا.

(١٩)

كانت شركة أوترتار أحد أكبر نجاحات بِ ب، حيث إنها شركة مزدهرة. وحسبما عرفت فيما بعد، لم يكن بازيل يمتلك سهمًا واحدًا فيها. لقد انطلقت الشركة عام ١٩٥٨، وكانت ترتكز على أسس ضعيفة وبعدها ارتقت تدريجيًا إلى مستوى أكبر الشركات الفرنسية المنظمة للرحلات. ولقد شهدت له حرفيته الوظيفية بمهارة منقطعة النظير لزيارة بلاد بعيدة مثل الهند أو بالى. أما شريكاه الاثنان فى الإدارة السيد جون ميشيل لو بولك، والسيد روجيه مارينيللى، فكانا من نصيبهما أن تصدرا غلاف مجلة أمريكية.

وهناك، لم يكن الفرد يسكن الفنادق ولا الأكواخ (البنغل) ولكنهم كانوا يقيمون عند ساكن ما بعيدا عن الأماكن السياحية. ومع ذلك كان لهم أنشطة مشتركة يديرها أناس على معرفة جيدة بالبلدة؛ فشركة أوترتار فضلاً عن أنها تقدم نموذجًا لكيفية قضاء الإجازة، كانت أيضًا قد ابتدعت أسلوبًا آخر للسفر.

لقد قدمنى بازيل للسيد مارينيللى والسيد لوبولك أثناء حفلة كوكتيل ريفية فى مواقع الوكالة التى كانت تحتفل بالزبون رقم عشرة

آلاف، حيث كانت الصالة مزينة بصور ضخمة لأوربيين يرتدون الشورت وعلى رءوسهم برانيط من القش وهم يشوون الخراف على الأسياخ، أو يحملون قربا من الماء على ظهر الحمير، وفى كل مكان كان يظهر شعار الشركة الشهير ("هناك عالم آخر").

كان روجيه مارينيللى ذلك الرجل الملتحى الضخم، يظهر بقميص منقوش بالورود وكان يشغل مكانًا بارزًا بجسمه الضخم وحركاته الغير المنتظمة، وكذلك بضحكاته الرنانة؛ فلم يكن يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ولكن بدانته كانت تعكس عليه هيئة تكبره بعشر سنوات. وقبل أن يذهب هذا الجنوبى الذى كان يحلم بأماكن بعيدة منذ طفولته إلى باريس، كان قد أقام أسواقًا فى نيس وتولون.

أما جون ميشيل لوبولك، فقد كان طفلاً من نوييه وهو مغرم بالعالم الهندى وكان صوته أجش كأنه مصاب بالبرد ولديه هيئة برهمانية. وحتى عام ١٩٥٨، كان يقضى نهاره فى مكتبة مدرسة اللغات الشرقية، حيث كان مستغرقًا فى أبحاث علمية.

إن بازيل هو الذى قدم أحدهما للآخر؛ فاستشعر مقدمًا أن الله قد خلقهما حتى يتفاهما وأن أحدًا لم يكن ليراهن مطلقًا على نجاح هذا الارتباط الغريب. ومنذ ذلك الحين، كان بازيل بمثابة العامل المساعد لتفاعل كيميائى غير منتظر.

وفى الصيف التالى ذهب مارينيللى ولوبولك معًا فى رحلة إلى كشمير استغرقت عدة أسابيع ولدى عودتهما، أسسا شركة "أوترسيو" التى سرعان ما تحولت إلى "أوترتار". ولقد عثر بِ ب لهما على مكان للشركة بسعر مناسب فى الحى الحادى عشر، ثم سهل لهما الحصول على قرض بنكى بشروط مميزة وعرفهما أيضًا برجل ثالث يدعى فيالا وهو موظف سابق فى وكالة هافاس وكان عاطلاً. ودون هذا الشخص الأساسى الذى أصبح العمود الفقرى للشركة، لم تكن شركة أوترتار لترى النور.

كانت الشركة تخدم الأشخاص المغرمين بالترحال من ذوى الموارد المحدودة الذين لا تخيفهم ظروف الحياة القاسية. وقبل الرحيل بعدة أسابيع، كانوا يجمعونهم فى حفلة نهاية الأسبوع للاستعداد للسفر وذلك فى أحد بيوت الشباب بالقرب من فونتان بلو. وفى هذا المكان كان هؤلاء الأفراد يتعرفون على رواد الشركة وكانوا يستعلمون فى شيء من التفصيل عن عادات وتقاليد البلد المختار.

هذا، ولقد كانت أول طائرة شارتر فى أندونيسيا خلال صيف ١٩٥٩على وشك أن تحدث كارثة؛ فقد كانت تحمل اسم "كونستلاسيون" وهى مؤجرة من شركة أوترتار حيث تعطلت فى سنغافورة وتوقفت تمامًا لمدة ثمان وأربعين ساعة. ولكن روجيه مارينيللى الذى كان من بين المسافرين، نجح فى تحويل هذا الظرف

الطارئ إلى أوقات مرحة. فسرعان ما امتلأت صالة المطار بالمراتب المحمولة (أكياس النوم)، بينما كانت تتناغم آلات الجيتار والناى وعدد كبير من الهارمونيكا. وبعد أسبوعين تلا هذه الأمسية التى لا تنسى معسكر للكشافة أقيم على شاطئ كوتا فى بالى ولم ينفض حتى شروق الشمس.

ونشرت مجلة" فرانس سوار" صورة فى الصفحة الأولى تحت عنوان جذاب "معسكر بدائى فى سنغافورة"، وكان بمثابة إعلان غير منتظر لشركة "أوترتار". ووجدت الشركة شعارًا آخر لها، ألا وهو" فن التأقلم مع المفاجآت"؛ فمع الشركة لا يكون السفر مختلفًا فحسب، بل المفاجآت أيضًا.

ومنذ السنة التالية، حققت الشركة أرباحًا وبذلك ضاعفت أصولها ونقلت مقرها إلى ميدان مونبرنص. هذا المكان الذى سيصبح مكانًا أسطوريًا لجيل كامل من السائحين الذين نطلق عليهم سياحا فوق العادة. ولعمليات التوظيف، كانت الشركة تعرف إلى من تتوجه؛ فقد كان دائمًا بازيل هو الذى يعيِّن الموظف أو المحاسب أو المغامر المطلوب. وفى سنة ١٩٦٤، كان ثلث موظفى الشركة البالغ عددهم مائتين وخمسين فردًا يأتون من شارع ريمون لوسوران.

لم يكن ب بِ يريد مقعدًا فى مجلس الإدارة ولا مشاركة فى الأرباح ولكن لوبولك ومارينيللى ألحّا عليه قائلين:

– على الأقل دعنا نوفر لك مكتبا أفضل من ذلك وسكرتيرة!

فرد قائلاً وهو يغمز بعينه:

– إننى لست بحاجة إلى مكتب؛ فهذا المكان ليس إلا محطـــة للخدمات.

فقررا إذًا أن يتحملا نفقات الإيجار والتليفون وكذلك مصاريف منزله القابع فى شارع ريمون لوسوران، وفى هذه المرة سَكَتَ مذعنا ومنذ ذلك الحين أصبحت خدماته بعيدة عن أى أعباء مادية.

(٢٠)

لم أذهب سوى مرة واحدة للمكان الذى يعمل فيه بازيل لأحمل له خطابا عاجلا كان ينتظره، وكان ذلك فى صباح أحد أيـــام فـــصل الشتاء حيث يغطى رذاذ المطر كل شيء، وبدا لــــى شـــارع فيفيـــان مزدهرًا وراقيًا...

هناك وبنبرة متكلفة استقبلتنى سكرتيرة بدت لى طويلة القامة تحت تأثير حذائها العالى المدبب كما كانت حبيسة ردائهـــا الرمـــادى المؤلف من جزأين.

أدخلتنى هذه السكرتيرة إلى صالة انتظار ثم إلى مكتب كبيـــر حيث كان يعمل أربعة موظفين فى سكون تام.

فُتِح باب وظهر بازيل بقميص مشمور الأكمام وهـــو يبتـــسم كعادته:

- شكرا يا عزيزتى. قال ذلك وهو يبعث لهـــا بقبلـــة علـــى أطراف أصابعه، الأمر الذى أذاب جمودها على الفور.

تسلل قليل من الهواء المنعش إلى قاعة بليسيه بونتال، الـــذى ربما كان هو أيضًا غائبا أو مختليًا بنفسه فى مكتب آخر.

إذا كان بازيل يتمتع بمكانة خاصة فى هذا القبر، فهذا لا يرجع فقط إلى عمله فيه لنصف دوام، بل لأن الكاتب الشرعى لم يكن ليستغنى أبدا عن معاون لديه مفكرة تمتلئ بالعناوين مثل تلك التى فى حوزة بازيل، علاوة على ذلك فإن بازيل كان يشغل منصبا لا غنى عنه فى هذه القاعة؛ فقد كان دائمًا ما يدافع عن هذا أو ذاك من زملائه الذين كان خجلهم الشديد يمنعهم من مواجهة صاحب العمل الذى كان فظا حتى فى غضبه الصامت.

- سيدى كنت أريد أن أحدثك عن بلونشو.

فهمهم بليسيه بونتال قائلا:

- وماذا أفسد بلونشو أيضا فى هذه المرة؟

- لا بد له أن يتغيب فى نهاية الأسبوع بسبب زواج شقيقة زوجته.

- من؟ شقيقة زوجته! وماذا أيضا؟

- يا سيدى إن شقيقة الزوجة لا تقل أهمية عن الحماة. هذا مثل عند قدامى المصريين.

لم يبتسم بليسيه بونتال ولكن تنهد أما بلونشو فقد حصل على الإجازة التى كان يرغب فيها.

ومن جانبه كان بليسيه بونتال يتوجه إلى بازيل لتسوية كل المسائل التى تثير غضبه، فقد قال له ذات يوم:

- هذا شيء لا يصدق.

- إن هذه القاعة تغلق أبوابها فى مواعيد مكتب البريد، هناك أمور طارئة، ففى يوم الأحد الماضى فى فترة ما بعد الظهيرة لم أنجح فى العثور على ملف التأمينات، حينئذ قام السيد بازيل بتقديم اقتراح إلى زملائه، وهو أن يتم تنظيم حضورهم احتياطيا يوم الأحد وذلك نظير مكافأة.

فقبل الزملاء ذلك الاقتراح ولكن بعد مناقشات طويلة، إلا أن بليسيه بونتال رفض رفضا باتا معلقا:

- لن أدفع شيئًا مقابل الساعات الإضافية.

فرد بازيل:

- يا سيدى ليست المسألة مسألة ساعات إضافية، ولكن الأمر يتعلق بمكافأة ستكلفك حقيقة أكثر من ذلك.

فأجابه بليسيه بونتال:

- ماذا؟ أكثر من ذلك ... يبدو أنك قد جننت.

ثم قام السيد بازيل بشرح مطول للنظام البديع الذى كان يتصوره.

ومنذ الشهر التالى، انقلب نظام العمل رأسا على عقب، وفى ظل مواعيد أكثر مرونة أصبحت قاعة بليسيه بونتال أول قاعة فى باريس تعمل سبعة أيام فى الأسبوع.

كان ابن عمي يعبر كل صباح نهر السين ليذهب إلى شارع فيفيان متمسكا بهذا العمل الذى لم يكن يعتبره حاجزا يعبره فحسب، بل أيضًا موردًا للرزق. ولكن تُرى هل كان سيحاول دون هذه الأعمال الصباحية الإجبارية تحويل نشاطه المسائى إلى مهنة ويصبح هو نفسه بيروقراطيا؟

لقد كان المكتب يذكره فى كل وقت بصرامة بعض القوانين وعبثيتها، حيث إنه لم يكن ليتواءم قط مع المصطلحات القانونية التى كانت تدهشه أو تضحكه.

أكان وجود " الموهبة اليدوية " يعنى أن هناك مواهب أخرى آلية أو روحانية؟ أم أن العطاء بين الأحياء يفرض وجود عطاء آخر بين الأموات؟

– لاحظ بازيل أن القانون المدنى مخيب للآمال، فلا مجال فيه للمشاعر أو الخدمات، ولكنه يضم آلاف البنود التى تتعلق بالعبودية.

فسرعان ما فهم زملاؤه أنه لم يكن منافسا لهم فقد كان يعلق فى شيء من السخرية قائلاً:

- أنا أول كاتب عدل يعمل نصف دوام، ماذا تطلبون أكثر من ذلك؟ ويضيف ممسكًا بعصا المارشال قائلاً:

- على الجانب الأيمن أعمل وعلى الجانب الأيسر أشعر بالمتعة.

العمل أولا والمتعة ثانيا، لم يكن ليحتمل العكس. كان يترك نشاطاته الشخصية ليختتم بها يومه.

فمنذ الثانية بعد الظهر حتى الثانية صباحا، كان بازيل يعيش حرا كالهواء الطلق.

كان النشاطان اللذان يقوم بهما بازيل يبدوان متضادين تماما، ففي القاعة كان كل شيء محسوبا ومنظما ومنسقا بما يتيح الخوض في عالم الضمانات الرهنية والأنصبة والحصص.

أما في شارع ريمون لوسوران (فكان عالم الخمر والرقص) حيث تهيمن مملكة الشك والمفاجآت؛ فلا كود ولا عقد ولا وثيقة ولا توقيع ولا أثر مكتوب لأي شيء.

بين بازيل في الصباح وبازيل في المساء، كان نهر السين يبدو أكثر اتساعًا من محيط.

لقد كانت قاعة السيد بليسيه بونتال مدرسة للدقة، حيث يخضع أى عمل موثق هناك لتحقيقات لا حصر لها. فبازيل الشرقى الذى نشأ فى مجالات التقريب، قد تعلم الآن علم الرياضيات.

وعلى الرغم من مسئولية الكاتب الشرعى ومساعديه عن سر المهنة، فلم يكن أى قانون من هذا النوع يطبق فى شارع ريمون لوسوران، ومع ذلك لا يحب بازيل مطلقًا الحديث عن كيفية إسدائه لخدمة ما وكان يقول:

– الخدمة كالهدية لا يترك أبدا ثمنها عليها.

(٢١)

اكتشفت عن طريق الصدفة أن بِ بِ كان يقوم منذ عدة سنوات بتقديم سكن مؤقت للمهاجرين وللقادمين من الضواحى، الذين يصلون لتوهم إلى باريس أو للضواحى، دون مورد للرزق. ولدى علمه أن طبيب الأسنان يمتلك شقتين شاغرتين فى الحى التاسع عشر، فاجأه بازيل بطلب شقة منهما وهو يحدد موعدا للاستشارة، فرد الطبيب قائلا:

- لكننى ليست لدى نية لتأجيرهما.

فقال بازيل:

- ليس للإيجار، ولكننى أرجو أن يصبحا تحت تصرفى مجانا بعض الوقت لصالح أشخاص يمرون بأوقات عصيبة.

فسأل الطبيب متعجبًا:

- لكم من الوقت؟

- الوقت الذى تريد.

ولمدة ثماني سنوات بعد ذلك، ظل المنزل تحت تصرف ابـن عمي، وظل الطبيب مدينا له بعدد هائل من الزبائن.

وفي هذه الفترة وقع تحت تصرفه أيضا مكان تم تحويله إلـى بيت صغير في منطقة شونتييه. كان مئات الأشخاص يـدينون لابـن عمي بجميل كبير ومن هذه الشخصيات "القدامى"، شـخص يـدعى سارج جاليوري، حيث كان هذا الرجل مرحّلا من الجزائر وكان من المؤكد أنه سيصبح ثريا لاختراعه شفاطا صغيرا لأجهزة دقيقة. وعند وصولي إلى فرنسا في ١٩٦٣ كان هذا الشخص أحد أعمدة شبكة بِ بِ.

ومما كان يؤثر في نفسي، هو أن ابن عمي كان يتحدث فـي الهاتف مـع جميـع محدثيـه بنبـرة واحـدة، فـالموظف الكبيـر أو الدبلوماسي لم يكن ليعامله أفضل من عامل مـسكين يقـف أمـام كابينة تليفون بالعملة أمام مراحيض مقهى. فقد كانت عبارة:"صـباح الخير" الموجهة للسيد السفير لا تختلف عن تلك التي يوجهها لحارس مبنى أو سباك، فكان ذا نبرة مهذبة ومرحبة دون مبالغة.

لم يكن بازيل يمتلك سوى هاتف واحد ذي مينا سوداء. ومعه لم يكن الاتصال ينقطع، وكانت خبرته تسمح له باستيضاح الاتـصال منذ اللحظات الأولى، فكان يلاحظ أن المتكلم يرفـع صـوته عنـدما يتصل من مكان بعيد، وبغريزته كان يحلل سرعة الصوت وإيقاعـه ونغمته. فقط كانت تكفي كلمة "آلو" للسماح له أن يتعرف على الحالة

النفسية لمحدثه أو على الأقل على السبب من الاتصال، ثم يستشف إمكانية الحل بسرعة البرق كما لو كان يحتفظ بكل علاقاته في ذاكرته.

وكان يقول:

- سأرى ماذا يمكننى فعله.

فى حين أنه كان يعرف مسبقا ويرى إذا ما كان تدخله سيجدى أم لا، فكانت أحد هذه الأشياء أن يجد مسكنا لمستأجر موسر، أو أن يسمح لأحد أنصار دى جول المغمورين والذى يسكن فى أقاصى مدينة الكيرسى أن يتم استقباله فى قصر الإليزيه لمصافحة معبوده.

وفى التليفون عندما كان يقول "إننى أسمعك"، لم يكن ذلك نوعًا من عبارات المجاملة، بل كان يعنى أيضا أنه كله آذان صاغية، إذ كان يضع نفسه مكان الآخر فيرتدى عباءة محدثه، وكانت تعبيرات وجهه تعكس ذلك، فقد كانت كل ذبذبة فى خط التليفون تدفعه إما ليبتسم أو ليقطب حاجبيه.

- هنا بازيل باتركاني. إننى أسمعك... كان ذلك على شاكلة "رن وادخل". فلقد كان بِ بِ يعلم أن اللحظات الأولى من الاتصال أساسية: فالطالب إذا ما شعر بالحرج سيغلق الخط ولذا كان يشجع الشخص على الحديث وأحيانًا يرسل صوتًا خفيضًا، حنونًا تعبيرًا عن ابتسامته عبر الأثير.

تعلّم بازيل كيف يعرف مكالمات المكروبين التى غالبًا ما تأتى فى فترات الأعياد أو فى نهاية الأسبوع أو فى بداية السهرات، ودون أن يخدعه أحد، كان يحدد موعدا.

كان هذا البطل يستطيع التعامل مع كل العناصر، حيث كان يرتجل كما لو كان مصلحًا اجتماعيًا أو طبيبًا نفسانيًا، فمن أجل أن يريح زائره الذى يجلس على طرف المقعد وأصابعه متشابكة، كان يحكى له قصة وغالبا ما تكون غريبة ونادرا ما تكون فى صالحه. فكان ينجح بذلك أن ينتزع ابتسامة من محدثه ثم بعض الكلمات، وفيض من الكلام يتدفق بعد ذلك.

وهكذا كان بازيل يوجز الإسعافات الأولية قائلا:

- بالنسبة لمصابى حوادث الطريق يجب علينا أن نتحدث إليهم، أما المقهورين فى الحياة فيجب أن نتركهم يتحدثون.

لقد كان بازيل يتأنى بحضور كامل دون أن يبحث عن النقائص التى تسمح له بالتدخل. فقد كان حقا " يعطي" فرصة للكلام، وعندما كان يتحدث فى النهاية لم يكن هو الذى يتحدث، حيث كان يتبنى بغريزته إيقاع صوت زائره ونبرته، وأيضا بعض حركاته. كان هذا التقليد مؤثرا للغاية وفى غضون ساعتين من الحوار مع شخص من مارساى، كان يستطيع تلقائيا التلفظ بكلمات بلهجة أهل الجنوب... إنه حقا لحرباء.

ولكن هل كان لديه جرح خفى هو الذى يجعله أكثر تفهمًا لهذه النفوس الضعيفة؟ حتى إنه كان أحيانًا يصاحبهم إلى أسفل مدخل المبنى أو إلى محطة المترو ويودعهم على مضض، فى شيء من اللطف والحيطة.

(٢٢)

قالت سابين باستنكار:

- كيف تصف ابن عمك بالوسيط! هذه الكلمة مرعبة فهي تذكرني بالسمسار.

كنا نمشي جنبا إلى جنب في ممرات حديقة النباتات التي قد دعتني سابين لأزورها، حيث كانت هذه أول مقابلة لنا من دون بازيل، وكان من الطبيعي أن نتحدث عنه، فتساءلت:

- هل تقصدين أن أصفه بالمصلح؟

- إذا كان ولا بد، فلماذا لا يكون صاحب جراج!

فسكتت للحظات ثم توقفت تماما أمام مدخل صوبة كبيرة وقالت:

- من الأفضل أن تقول إنه واهب أو محسن.

فأجبت قائلاً:

- إن بازيل لا يحب مطلقا هذه الكلمات الرنانة، كما أنها تدل على معنى واحد؛ أما بازيل فهو دائما ما يصل بين شخصين، فهو إذا أداة للوصول أو الربط.

– يا له من شعر! لكنى مازلت أفضل كلمة وسيط.

لقد كانت سابين محرمة على وكنت أنظر إليها خلسة، وإن لم تكن هذه النبتة القمحية الجميلة، التى جعلها الربيع نصف عارية بتنورتها القصيرة وصندلها ذى السيور الرفيعة التى تزيد من جمال ساقيها، صديقة لابن عمى، كنت سأفعل أى شيء لإغرائها. ففى أحلام اليقظة كنت أعِد كل أنواع السيناريوهات العبثية بعيدة الحدوث: لقد كان بِ بِ محبًا لعمل الخير، فكان يسمح بالتقاسم أو كان يختفى ليفسح لى المجال...

كنت أشعر بالحاجة لمعرفة نشاط بازيل، فقد كان يبدو لى أداة للوصل بين الأشخاص أو ربما جسرًا؟ ولكن هذا المعنى يبدو مجردا وكان يجب التركيز على التبادلات. ولكن كلمة "مبادل" كانت أيضا تبدو غامضة، فهى تذكرنى بالسكة الحديد وكأننى أقول محول سكة حديد ولماذا لا يكون وكيلا للتبادلات.

كان يجب على أن أتهجى على الدوام، لكى لا أخلط بينه وبين الصراف الذى يتلاعب بالعملات.

فى المنتزهات المصممة على الطريقة الفرنسية، شرحت لى سابين بالتفصيل مربع الورد المكون من أربعمائة وأربعين نوعا. ثم جذبتنى إلى متاهة لترينى شجرة الأرز اللبنانية التى ترجع إلى القرن الثامن عشر. وعندما وصلنا أمام جناح البرونز الصغير باغتها قائلا:

- إن بازيل عامل تليفون عمومى أو خاص

فنظرت إلى بمكر وقالت:

- هذا صحيح فهو يجرى اتصالات تليفونية عديدة.

- ولكن لا، ليس هذا ما أود أن أقوله! إنه يذكرنى بعاملات التليفون اللائى كنت أراهن فى طفولتى فى نادى سبورتنج فى هليوبوليس، فلم تكن قاعة التليفون تبعد كثيرا عن حمام السباحة حيث كن يجلسن أمام لوحة كهربية والسماعات على آذانهن ولم يكن يكففن عن إدخال الفِيَش فى مَنْيَمِها، فيتحقق الاتصال بين المتحدثين. لقد كنت أجلس أوقاتا طويلة أراقبهن أثناء قيامهن بهذا العمل.

كانت سابين تريد أن تسمعنى وأنا أتحدث عن بازيل فسألتنى:

- وكيف كان نادى سبورتنج؟

فذكرت لها المجموعة التى كانت تتكون من عشرين أو ثلاثين شابًا مستهترًا، هذه المجموعة التى كانت ترى فى بازيل رائدًا لها؛ ولكى أعطى لنفسى قدرًا من الأهمية ذكرت لها محاولة انتحار الجميلة زينة دكاش فتعجبت قائلة:

- هذه الأفلام السينمائية! ومحاولات الانتحار الفاشلة من طبائع النساء، فعندما يريد المرء حقًا قتل نفسه فإنه لا يخطئ أبدا.

حاولت أن أنهى هذه القصة التى تحدثت عنها دون حذر، ولكنها أصرت قائلة:

- لقد قلت إنها قد فقدت الوعى عندما جاء ليحضر لها الورد؟ ولكن هذا غير معقول! فهل رأيت أحدًا من قبل يفقد الوعى من التأثر؟ قد نبكى، نرتعش... لكننا لا نفقد الوعى مطلقا، لقد كانت دون شك متصنعة. فقلت:

- بالتأكيد

- وكيف أصبحت تلك الناجية؟

- لقد تزوجت من جواهرجى من القاهرة ... أى زواجا سعيدا...

- أرأيت!

لم أكن أرى سوى عينيها الجميلتين اللتين كانتا تلمعان لشخص آخر.

(٢٣)

كانت صورة عاملة التليفون تلاحقني، ولاحظت أن بِ بِ عندما كان يُطلب منه أن يصلح بين متخاصمين، كان ينسحب على أطراف أصابعه قبل انتهاء المفاوضات تاركًا بذلك هؤلاء ليحسموا أمرهم بأنفسهم، فقد كان يتصرف مثل عاملات التليفون اللائى يقلن "يمكنكم التحدث الآن" ثم يتركن المتحدثين.

وكان اللجوء إلى بازيل الوسيط يتم ليكون حكمًا في المشاجرات، فقد كان يمتاز بقدرته على إزالة التوتر ببعض الجمل الممزوجة بالفكاهة التى كانت بمثابة زيت شرقى يهدئ من ثورة العقول الجامحة.

لكن كلمة "حكم" ليست مناسبة، فقد كان مبدعًا ذا عبقرية خارقة، ساحرا لا يقنع بالمعتاد من الأمر، بل يؤثر الجديد المبتكر.

وكان يسعد عندما ينهى صراعًا ما كسعادته بتقديم شخص لآخر. فهو يحب الصلح كحبه لنسج علاقات جديدة ... لذلك فهو نساج ... ولكن، تُرى هل تزعج هذه الصورة سابين؟

بعد مرور عدة أيام، ذكرت أمام ابن عمى عاملات التليفون فى نادى سبورتنج فلمعت عيناه من السعادة قائلاً:

- نعم، حقًا إننى أتذكر تلك الآنسات جيدًا! ففى زمنى كانت هناك عاملة قبطية رائعة تدير رءوسنا جميعًا... كانت هؤلاء العاملات يتميزن بالجدية والتركيز فى العمل. وكنت أتخيل أنهن قد يخطئن أحيانًا مثلما أخطئ.

فوجهت إليه نظرة مستفهمًا فرد قائلاً:

- تلك الأخطاء تحدث صريرا وضجيجا ولبسا وربما أيضًا كوارث.

وحدثنى أنه منذ ثلاث سنوات مضت، كانت صفقات تجارية عادية توشك أن تتحول إلى جرائم دموية. وشاءت صدفة غريبة أن يقيم علاقة بين نائب من مقاطعة بروتانيه كان يبحث عن منزل مؤقت، وبين وكيل للعقارات؛ الذى لم يكن سوى عشيق لزوجة النائب. فعندما ذهب النائب لزيارة هذه الشقة، قابل وجهًا لوجه السيدة التى كان يعتقد أنها تبدل إصيص الجيرانيوم فى منزلهم فى منطقة لانيون. وقال بازيل:

- لقد حرصت على اختيار وكيل للعقارات ونائب ينتمى كلاهما إلى حزب سياسى واحد: فهو رجل مناضل يتبنى أفكارا

صريحة. كان ينبغي لي توخي الحذر، حيث إنه أثناء عقد اتفاقية للحزب، وقعت السيدة في غرام ذلك الباريسي.

فقلت:

- وكيف انتهت هذه المشكلة؟

- طبعًا بالطلاق الذي طلب مني النائب أن أتفاوض بشأنه مع الطرف الآخر. وعلى الفور شعرت بالخزي من نفسي، ولكننا قد توصلنا إلى حل ودي أرضى الطرفين، وتزوجت السيدة هذا الوكيل. أما بالنسبة للنائب فكان علي وشك أن يتزوج مساعدته في البرلمان وأراد أن أكون شاهدًا ولكنني صحت في وجهه قائلاً: " كفى "

- فقد كنت شاهدًا على عدد لا حصر له من الزيجات، ولدى أبناء كثيرون بالمعمودية؛ إن تَعَدُّد الوكالة هذا يجب أن يمنعه القانون.

(٢٤)

لم تكن الهجرة مأساة بازيل حتى وإن كانت تتملكه أحيانًا نفحات من حنين. فهو ينتمي إلى هؤلاء الأشخاص الذين يتأقلمون تحت أي سماء وفي كل الأوساط، بينما لا يشعر آخرون بالراحة في أي مكان وهنا تكمن قدرته الحقيقية.

هذا ولقد منحت له الجنسية الفرنسية في عام ١٩٥٧! دون مشكلة. وفيما بعد اقترحت بعض التشكيلات السياسية اليمينية واليسارية عدة مرات انتخابه في قوائمها؛ لكنه رفض كل هذه العروض لأنه لم يكن يحتاج لمثل هذا النفوذ ليشعر أنه مندمج في المجتمع الفرنسي. فلقد كان يفضل أن يمارس سلطته في الخفاء فلم يكن قائدًا يتقدم صفوف الآخرين ولا فوقهم ولكن دائمًا وسطهم. فقد كنت أراه وكأنه مركز لدائرة يتزايد نصف قطرها على الدوام، حيث كان مركزًا للتأثير والإشعاع. لقد رفض الوكالة، كما رفض رتبة الاستحقاق ووسام الشرف وغيرها من أشكال التدليل المماثلة! فلقد كانت الأوسمة تكفيه، حتى إنه كان يقول:

- إن عدد الناس الذين يستحقون الاحترام ويحلمون بشهادة الشرف، يدعو للجنون.

لم يكن الحصول على لقب فارس وسام الشرف، يمثل لبازيل أية صعوبة تذكر:

فلقد كان بازيل يعرف الباب الذى يطرقه، وإن قائمة التعيينات والترقيات لمرتين فى السنة كانت تجعله يحصل على الشكر الجزيل أو فى بعض الأحيان على هدايا ضخمة.

ففى منتصف الخمسينيات، كان الحصول على خط تليفون أصعب من الحصول على جوقة الشرف. وفى هذا المجال، كان على بازيل التصرف وكان يعتنى بعلاقاته فى دائرة البريد فكان يتحاشى أن يطلب الوساطة من نفس الشخص قائلا له "هذه المرة الأخيرة التى أكتب لك فيها... ولكن لا تنسى من فضلك أن تخبرنى برقم هاتفك...". وأما الطلبات الخاصة بالإعفاء من الخدمة العسكرية أثناء حرب الجزائر، فقد كانت أكثر حرجًا من غيرها، حيث لا ينبغى تعدد الطلبات فى هذا الصدد. فكان بازيل يكتفى بانتقاء بعض الطلبات لتقديمها إلى مكتب وزير الدفاع أو إلى الضباط الكبار الذين كان يعرفهم، وذلك حتى لا تحرق الشمس جبهته من الانتظار. لم يكن ذلك المجهود يكلل دائمًا بالنجاح، ولكن إذا ما تحقق فهو يجلب له اعترافا دائما بالجميل من قِبَل أصحاب المصالح وعائلاتهم. أما المسائل الأقل أهمية، فقد كان ب ب يكتفى بذكر الاسم والعنوان كاتبًا: " أنا من طرف بازيل باتركاني"، فهذه هى كلمة السر القيمة مثلها مثل "افتح يا سمسم" التى كانت تفتح الكثير من الأبواب. وصل

الأمر إلى أن بعض المتطفلين كانوا يستخدمونها من تلقـــاء أنفـــسهم. وعندما كان يعلم بهذه الخدمات المسروقة، كان بازيل يرفع ســـماعة التليفون ليُدفِع السارق ثمن جريمته؛ ما دام وُجِد الغش بَطَلَ الـــسحر، فهناك لا محالة مقايضة حيث كان يكتب له بازيل:

- صديقى العزيز يقال إنك قد استخدمت اسمى لتحصل علـــى تخفيض من وكيل سيارات سيمكا، فهل لك أن ترد الجميل وتقدم لـــى خدمة صغيرة؟

(٢٥)

لاحظت أن بازيل عندما يتلقى شكرًا لا يرد أبدًا قائلاً: "العفو" أو "لا داعي" أو "لا شكر على واجب" ولكنه كان يقول: "إن ذلك يسعدني". واليوم الذى عرفت فيه أن هذه الجملة ليست بالمجاملة، اتضح كل شيء أمامى. وقد أكد لى ذلك بنفسه أثناء جدال تطرق فيه إلى مناحى فلسفية، فقال:

- لا يوجد عمل مجانًا، أيها الاقتصادى الكبير.

- إنك على الرغم من ذلك يا بازيل عندما تقدم خدمة...

فقاطعنى قائلا:

- تقصد إذًا أننى بهذه الخدمة أتطلع دائما إلى المصلحة!

فصرخت:

- المصلحة! لا أستطيع تصديق ذلك.

- إذًا لأشعر بالسعادة إذا أردت أن تقول ذلك.

فأعجبته هذه الكلمة ولكنه كان يفضل صيغة الجمع وهذا ما أدركته شيئًا فشيئًا، فعلى مدار الأسبوع كانت تتعدد دواعى سعادته

فهو يسعد عندما يكتشف وجهًا جديدًا وكأنه مكتشف هبط على مكان مجهول وهو يسعد عندما يلتقى بأحد معارفه القدامى أو يقوم بتقديم شخص لآخر أو يحل مشكلة ما أو يتلقى شكرًا وفى النهاية قال:

- إن العرفان بالجميل يعادل أشكال التقدير كافة.

وكان هناك طبيب قد أشاد " بالإيثار" لدى بازيل الذى أهداه ابتسامة تريح النفس وقال له:

- أتمنى ألا يكون ذلك بالشيء الخطير؛ وذلك لأننى فى الحقيقة لا أعرف معنى الكلمة، إلا إذا أردت أن تقول إنه عندما أقدم خدمة هنا أو هناك، فإن ذلك ينسينى مشاكلى الصغيرة وأشعر بالرضا، حيث إن تقديم الخدمة لا يسيئنى ولا ينقص منى شيئًا.

وإذا اندهشت يومًا لرؤيته يضيع من وقته ربع ساعة مع رجل متطفل كان يرد عليّ:

- إن هذا مزاجى.

كان ذلك الرد مطابقًا للتعبير المصرى الذى كنا نسمعه كثيرًا فى طفولتنا، وهو يعنى هذه طبيعتى أو ذوقى الخاص. فكلمة مزاج تعبر عن شيء شخصى وخاص جدًا لا يحتاج إلى شرح ولا يحتاج إلى إذن. إنه هوى، إيثار أو نوع من الحرية المسئولة.

بل إن كلمة مزاج تحوى أيضًا معنى العفوية والسرور والغبطة، وهى فى ذلك يمكن أن نشبهها بأقل الشهوات، كأن يرتشف

المرء على مهل لبنًا باللوز بعد القيلولة، أو أن يتنزه على كورنيش الإسكندرية عند غروب الشمس، أو أن يجلس فى شرفة منزله فى الحادية عشرة مساءً من شهر يونية عندما يغمرك نسيم مصر الجديدة فى جو من السعادة.

يبدو أن كل موعد جديد كان يسعد بازيل: "نعم الأربعاء" بعد الظهيرة فى الساعة الرابعة فى ٥٣ مكرر شارع ريمون لوسوران مترو برنيتى سلم(د) آخر الساحة، نعم (د) مثل ديسكوفيل" أو دليكيسونس أو دوتيرونون.... كان حبه الدائم للكلمات يشعره بالتفرد وبسعادة التواصل مع الناس.

وشيئًا فشيئًا بدأ يتضح لى الطابع العبثى لكل ذلك، لقد كان بازيل مغامرًا لا يحسب للأمر شيئًا ولا يتطلع إلى مستقبل؛ يحيا الحاضر تاركًا على الدوام نفسه لنزوات الهوى ومقادير الصدف. فكان كل لقاء جديد يشكل صفحة جديدة فى حياته ويأذن بمغامرة جديدة، فحياته لم تكن إلا رواية تملؤها المغامرات.

وكان بازيل يكره شركة التأمين ضد المخاطر التى لم تكن تترك شيئًا للصدفة:

- على ألا يحدث شيء!

وبالفعل لا يحدث شيء وهذا ما يخلق السأم الكامل.

كانت ثقته بالآخر هى النهج الذى يتبعه، فهو دائما ما يــراهن على المتحدث وهذا ليس من قبيل النقاء أو السذاجة ولكنـــه أســلوب حياة.

وعندما كان بازيل يرى شخصًا يعرفه على الرصيف المقابل، كان لا يكتفى بصباح عابر؛ ولكنه يعبر الشارع ويمــد يــده مازحًـــا ويطرح أسئلة وكان يبدو عليه الاهتمام والسرور والشوق، كل ذلـــك فى شيء من التريث والسعادة الظاهرة.

وقد كانت سابين تتظاهر بالقلق وتقول:

- إن ابن عمك لا يستطيع العيش إلا من خلال الآخر فبدونـــه يشعر بالنقص.

كان هذا الآخر بمثابة النَفَس الذى يهب له الحياة، ليس بمعنـــاه الحرفى من شهيق وزفير ولكن بمعناه المجازى الذى يــتلخص فـــى كونه نشاطًا حيويًا دائما لا يتوقـــف؛ فهـــو بالنـــسبة لبازيـــل يـــشبه الأكسجين الباعث للحياة والذى لا تستقيم الحياة بدونه. وكان بازيـــل يصل به الأمر أحيانًا إلى افتعال خلاف مع أناس لا يعرفهم فقط مـــن أجل التواصل معهم.

لقد كان انجذابه الدائم للآخرين يجعله يدور فى فلكهم وكأنـــه حسير أو أعسر، فهو لا يفهم شيئًا عن العزلة الطوعية مهما كانت لها من دوافع نبيلة، حتى أن حياة الناسك أو الزاهد كانت تمثل له لغـــزًا

من الدرجة الأولى بل أقسى أنواع العقاب الذاتى. فقد كـان يفـضل تحمل الآلام فى صحبة جميلة عن التمتع بأى شيء وحده.

لم يكن يستطيع أن يتناول الغذاء بمفرده، أو أن يركب الدراجة المنزلية الثابتة، بينما كانت تسعده الكرة الطائرة. وقد علـق روجيـه مارينيللى على بازيل مازحا:

- فى لعبة التنس كان ابن عمك لا يلعب سوى التنس الثنائى.

وإذا كان بِ ب معتادًا على الذهاب إلى رستوران سان جرمان دى بريه حيثما قابلنى المرة الأولى، فقد كان يتردد أيضًا على ثمانية أو عشرة مطاعم أخرى. وبخلاف ما توحى به مفكرة العناوين التـى يمتلكها بازيل، فما يهمه ليست "العلاقات" بل التواصل الإنسانى.

كان التليفون يرن، فرفع السماعة ليقول المتحدث: "خبر سعيد يا سيد باتركانى"، لقد وجدت ما كنت تبحث عنـه...." كـان بِ بِ يشكر بحرارة دون أن يضيف شيئًا أو يعد بشيء فى المقابل. وكانت نبرة الرضا فى صوت محدثه تبعث فيه سعادة تعادل سعادته بـالخبر السار الذى زُف إليه.

فقد كان يقول:

- الناس يتعلقون بى وذلك لأننى أقدم لهم خـدمات، ولكننـى أتعلق بهم أكثر عندما أتلقى منهم خدمة.

ويبدو أن السيد روجيه مارينيللى قد فهم كل شـــيء، فلخـصه بقوله:

- إن بازيل يشعر بقدر كبير مــن الـــسعادة عنـدما يعطـــى للآخرين الفرصة لأن يسعدوه.

(٢٦)

بدت سابين باكية وقد سالت دموعها لتحمل معها كل ما كـان يزين عينيها لوزية الشكل، وقالت ناحبة:

- لقد انتهى كل شيء بيني وبين بازيل!

فشعرت بأمل كبير يملأني على غير انتظار وسألتها:

- وكيف حدث ذلك؟

فردت بانفعال وهي تجفف دموعها:

- سأشرح لك ذلك فيما بعد.

لم تدرك سابين لماذا أنهى ابن عمي علاقتهما فـي شـيء من اللطف والحزم معًا، فهي لم تتوافق قط مـع أحـد آخـر مثلمـا كانت تتوافق معه وكانت ترى أن عليها أن تـستوضح الأمـر مـن جوانبه كافة:

لقد كانت على يقين أن بازيل لم يقع في غرام امرأة أخـرى، لدرجة أنها كانت تظن أنه كان مضطرًا لإنهـاء علاقتهمـا. فقلـت والشوق يملأني لأضمها إلى صدري:

– هل أستطيع أن أفعل شيئا من أجلك؟

– نعم حاول أن تعرف ما الذى يدور فى رأسه ولا تتردد حينها فى الاتصال بى، أرجوك!

لقد صرت الآن ناقمًا على بازيل، ونصبت نفسى مدافعًا عن سابين التى لم تطلب منى شيئا. فما جدوى إسداء خدمات للعالم بأسره إذا ما كان المرء يبكى أقرب الناس إليه؟

لقد كان بِ بِ متواضعًا فى مظهره العام، وبصراحة كنت أجد نفسى أفضل منه بكثير. فأى تأثير سحرى لديه يجعله يفتن جميلات مثل سابين ليفنستين، ولورانس موبرجيه أو زينة دكاش، واللائى بإشارة واحدة منهن، يَجِدنَ عددا من العشاق؟ ولماذا كان يتركهن فيما بعد؟

ومن جديد بدأ يتجسد أمامه الشر الكامن فى بِ بِ، ألم يكن صاحب المزاج هذا هو الذى يجد متعته فى تعذيب الآخرين ومحاولة الهيمنة عليهم؟ وإننى لأتذكر أن أحدًا من زملائى فى الفصل فى هليوبوليس كان يتلذذ بتعذيب النمل فى الفسحة؛ فكان يمسك بالسكين ليقطع النملة إلى نصفين وكان يقول:

هذا هو مزاجى.

تستحق سابين أن أثأر لها، وأتضامن معها، فلن ألبى دعوة بازيل المقبلة وإلا سأبوح له بفعلته هذى فقد يسمعنى... حاولت كثيرًا التفكير فى الأمر ولكن دون جدوى؛ وفى الحقيقة كنت على يقين من

أنه كان عادلاً معها إلا أن هناك شيئًا ما يخفى علىّ فى علاقاته العاطفية.

لا أحد كان يعرف بازيل أكثر من السيد روجيه مارينيللى فقد حاول أن يوضح لسابين موقف صديقه قائلاً:

- لا يستطيع بازيل أن يرتبط إلى الأبد بامرأة واحدة فلديه قناعة أن ذلك يَحُط من قدره فى نظر الأخريات.

وفى الحقيقة لم أفهم حينها معنى هذه الملاحظة.

لقد كان السيد مارينيللى أحد أعضاء الدائرة الأولى الخاصة بأولى الثقة والأصدقاء المقربين الذين كان بازيل يحب أن يقضى معهم وقتًا أثناء الإجازات الطويلة أو الأسبوعية أو فى المساء لاحتساء الشراب. فهذه كانت دائرة الأصدقاء الذين يعدون على الأصابع، فى حين أن بازيل كان يقيم علاقات حميمة مع عدد لا نهائى من الأشخاص. وقد اكتشفت أن تقديم الخدمات يحقق نوعًا من الارتباط وليس بالضرورة صداقات وكذلك أدركت أن ابن عمى كان يرغب فى أن يحب لذاته وليس للخدمات التى كان يقدمها.

أما أصدقاء الطفولة فقد كانوا متفرقين فى أنحاء العالم كافة؛ ولذا فإن الدائرة الثانية لم تكن لتكتمل على الإطلاق. وفى اللقاءات المكونة من ثلاثة أصدقاء إلى أربعة والمليئة بالضجة والفرحة والحنين، كان هؤلاء الأصدقاء يضحكون حتى البكاء وذلك وفقًا

للتعبير المصرى الفرنسى. وفى الحقيقة كم كنت أحب التسلل بينهم لأسمعهم وهم يرددون بعض الذكريات التى لم تكن تخصنى، لكنها كانت تؤثر فىّ تأثيرًا كبيرًا. كم كانت جميلة وغريبة مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات حين كانت فى منأى عن مظاهر الجنون- التى كانت تجتاح أوربا- فهى مصر بأسيادها ذوى الطرابيش وحسناواتها اللائى يتحدثن عدة لغات، وباحتفالاتها وصالوناتها الأدبية وشواطئها التى لم تطأها الأرجل، والممتدة على أطراف حقول التين! ربما كانوا يجملونها بعض الشيء ولكن لا شك فى أن جيلهم كان أقل اكتراثًا وأكثر ورعًا من جيلنا.

ومن بين أصدقاء بازيل، أذكر أيضًا جون وجان الزوجين اللذين كانا يعيشان فى شارع المعبد؛ وكانا يريان فيه الابن والأخ والأب...

فقد استقبلاه فى بيتهما فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٢ وهو العام الذى وصل فيه إلى باريس، وبعد ست دقائق من المناقشة التى دارت بين بازيل وجون أورانج، دعاه الأخير قائلاً:

- هل أنت مرتبط يوم الأحد القادم؟ أترغب فى تناول الغداء معنا؟

إن الطابع التلقائى لهذه الدعوة أعجب بازيل فذهب فى اليوم المحدد ووجد نفسه فى بيت مظلم، بالى الأثاث يدفئه خشب متقد

وضحكات أطفال. كانت جان تناهز الأربعين من عمرها وكان قوامها يدل على أنها أنجبت عددا من الأطفال هذا إلى جانب ما تعرضت له من عمليات إجهاض تصل إلى مرتين أو ثلاث، ولكن وجهها كان يشع نورًا، أما المقاتل القديم جون فكان يدير ورشة للوقود تابعة للشركة الوطنية للسكك الحديدية، وقد تعارف هو وزوجته أثناء الحركة الكاثوليكية العمالية.

كان بازيل يذهب إلى عائلة أورانج ليتناول الغداء مرة واحدة كل شهرين تقريبًا وقلما كان يصطحب معه إحدى رفيقاته، وذلك خوفاً من أن يصدم جون وجان اللذين لا يتخيلان الحب إلا فى إطار الزواج الأبدى. لكنهما كانا يتجاوزان عن ذلك ويرحبان كل الترحيب برفيقته فهما على استعداد أن يتقبلا أى شيء من بازيل.

(٢٧)

قابلت في شارع ريمون لوسوران شخصًا يدعى لوكو بعد فترة وجيزة من انفصال سابين وبازيل، وذلك ليس بالمعنى الحقيقي" للمقابلة"؛ فبينما كنت أدخل المبنى، كان هذا الأهوج ينزل درج الدور الأول وكانت سرعته فائقة كادت أن تطيح بي أرضًا.

فقلت له بعد أن أخذت ضربة في جنبي:

- يجب عليك أن تعتذر!

فرد وهو يركب الموتوسيكل قبلما يرحل تاركًا سحابة كثيفة من الدخان قائلا:

- اخرس!

لقد أثار لوكو حفيظتي، ولكن كان يجب علي الاحتراس عندما أتحدث عنه أمام بازيل. فمنذ ستة وعشرين عامًا، كان هذا الطفل ابنًا لمؤسسة الأحداث ولم يعش بعد حياة البالغين، على الرغم من مساعدات كفيله الذي أوجد له عددًا من الوظائف المتتالية، لأنه لم يكن لينتظم في أي وظيفة أكثر من عدة أسابيع، وكان صاحب العمل يقول وهو يتنهد:

- لوكو هذا الذى أتيت به يعمل يومًا واحدًا كل ثلاثة أيام وذلك إذا افترضنا أصلاً أنه يعمل.

كان لوكو متقلب المزاج، عديم المهارة وسريع الغضب، لذا لم يكن ليقبل أحد أبدًا توظيفه لديه دون دعم قوى كهذا. وظل الأمل يحدو بِ بِ لبعض الوقت فى أن يصبح هذا الهامشى شيئا ما خارج البلاد. ولكن المحاولات المتعددة فى "أوتر تار" وتايلاند وأندونيسيا قد باءت بالفشل.

كان لوكو يظهر بصورة منتظمة فى شارع ريمون لوسوران ليعلن أنه قد ترك العمل الذى يعتبره لا يحتمل. وكان الحزن الذى يقرأه فى عين بازيل يعادل أشد أنواع التوبيخ فلا يسعه إلا أن يخفض رأسه ليجعل العاصفة تمر. فبازيل بالنسبة له شمس لا بد أن تسطع فى النهاية.

واليوم الذى أخطأت فيه، مثلى فى ذلك مثل كثيرين غيرى - وأعربت عن دهشتى إزاء صبره عليه أنّبنى ابن عمى قائلاً:

- أتود أن أترك لوكو بعد كل هذه السنين؟ أتركه لمن؟ بعد كل هذه الأعوام؟ من الذى سيهتم به؟ من السهل التوصية على أشخاص يستحقون التوصية. فذلك مفيد على جميع المستويات، لأنه سيعود بالمنفعة على كل حال، وسيبدى لك صاحب العمل الامتنان، وسيشكرك العنصر اللامع الذى قصرت عليه الطريق. وخاصة أنه

سيكون قد أحرز تقدمًا سريعا. إننا نساعد بصدر رحب من هم ليسوا فى أمس الحاجة للمساعدة، بل ويستطيعون حل مشاكلهم علـــى أيـــة حال ولكن لوكو لا يستطيع؟

ومن جانب آخر كان بازيل يتوخى الحـــذر مـــن أن تـــسير علاقته مع لوكو فى اتجاه واحد فكان يحاول طلب مشورته بـــصورة منتظمة قائلاً:

- لوكو أحتاج إلى رأيك فى شيء ما، إن الراديـــو لا ينطـــق وينبغى لى أن أشترى واحدًا آخر.

فأى ماركة تنصحنى بها؟ هل تستطيع أن تسأل لى؟

لقد كان بريق الفرح الذى يراه بازيل فى عيون لوكـــو ينـــسيه كل المآسى الماضية والآتية.

ووفقًا لما أقره طبيب نفسى، فإن لوكو يعانى من ازدواج فـــى الشخصية. فقد أقر قائلا:

- إن عجزه عن التصرف يرجع إلى طبيعة متـــرددة فـــى كـــل المجالات، فهو يشعر بمشاعر متناقضة تترجم آنيا بمواقف متعارضـــة، حيث إنه يحب ويكره ويرغب فى العمل ويرفضه ويؤكد الشيء وينفيـــه فى الوقت نفسه.

فسأل بازيل الطبيب:

- هل هذا ما يطلق عليه انفصام الشخصية؟

- لا، ليس بالتحديد. ولكن يبدو أن هذا الصبى قد وجد نفسه معك.

إن تصالح لوكو مع نفسه أمر مبهم يصعب على بازيل فهمه حتى إنه تمتم قائلاً:

- هذا ما أصابنى من جراء محادثتى مع الأطباء النفسيين!

على أى حال، لم يكن من الممكن أن يدوم هذا الوضع. فينبغى لهذا الصبى أن يكف عن الاعتماد على بازيل ويطير هو بجناحيه. ولكن كيف يدفعه للحركة؟ كان دائمًا ما يتأنى فى البحث عن شمعة صغيرة ليضيئها وهو على يقين من أنها لن تُطفأ.

فى مساء يوم السبت، قبل وصولى إلى باريس بعدة سنوات عندما كان بازيل عائدًا إلى منزله، نادته مجموعة من الشباب الذين كانوا يرتدون قمصانًا سوداء، وكانت محركات الموتوسيكلات التى يقودونها تحدث ضجيجًا فى ميدان بور روايال وقالوا له:

- ما هذا يا أستاذ؟ أليست هذه الربطة محبوكة جدًا؟

إن شخصًا آخر غير بازيل كان سيتركهم ويسرع الخطى. ولكن بازيل حاول أن يبتسم وقال:

- فيما تضايقك ربطة عنقى؟

فقال واحد منهم وهو يمسك بظهر سترته:

- تخيل أنها تضايقنا! لا تستطيع أن تتخيل كم تضايقنا ربطة عنقك!

فهم بِ ب أن يدفعه بتلقائية فصرخ شاب ذو شعر أحمر:

- انتظر.. انتظر! أتعتدى على زميلى؟ سأريك ماذا سأفعل بالذين يرتدون ربطة العنق ويعتدون على زملائى!

وبحركة عنيفة فتح مدية ليوقف بازيل واضعا المدية أسفل أنفه حيث أمال السلاح قليلاً نحو خده. لقد كان هذا السلاح يلمع بسبب إضاءة عامود النور وأخذ يوخز خده قائلاً:

- ألا تحب زميلى؟ رد أيها الجبان! ألا تحبه؟

كان بِ ب يريد أن يهدئه؛ ولكن الكلام لم يكن ليخرج من فمه، حيث إنه كان يشعر بطرف السلاح على جلده. فقال الشاب ذو الشعر الأحمر:

- أتود ندبة لجرح عميق؟ ما رأى الأستاذ فى ندبة جميلة؟

وفجأة ضرب رَبْطة العنق وقطعها بالسكين فرحب الجميع بفعلته هذى عبر ضحكات ساخرة.

ففكّ ابن عمى وهو يرتعش ما تبقى له مـن رابطـة العنـق ووضعها فى جيبه وكاد أن يبتعد لولا أن قام أصغر شاب فيهم والذى كان يقرض أظافره بعصبية وناداه ليسأله بعنف:

- ولم لا تكون "بابيون"؟ فالفراشات تطير وتـسرق الملابـس مثل الرهبان. إن الرداء يصنع الراهب والرهبان يرتكبـون أعمـالاً قذرة...

وفى هذه الانطلاقة غير المتسقة اختلط كـل شـيء: البدلـة الكروازيه مع أولئك الذين يقلبون ستراتهم، الأحذية ذات الكعب مـع أولئك الذين يمسحون الجوخ... والياقة المقلوبة مع الفاسـدين الـذين يستغفلون الشعب...

وبعد ذلك، استدار زملاؤه غير مكترثين لرجل آخر مار، كل ما اقترفه من ذنب أنه كان يرتدى قبعة.

بدأ روع بازيل يهدأ قليلاً، وبدأ يستمع لهذا الولـد ذى القـصة المصفرة والمتطايرة والذى كان يصفى حسابات مع رجل هزيل وقال بعدما فرغ من صراخه: أنا اسمى بازيل وأنت ما اسمك؟

فكان يدعى لوكو.

(٢٨)

في العام الجامعي الثاني كنت أتمنى أن أنتقل إلى مسكن آخر يكون أكثر قربًا من الكلية. وأخذت أبحث عنه لمدة أسبوع. وعندما أبلغت بِ بِ عن عنواني الجديد قال لي بنبرة معاتبة:

- إنك لم تطلب مني شيئًا!

فقلت:

- لم أرد أن أزعجك.

فهز رأسه حزينًا وقال:

- لقد أحبطني كلامك. أزعجك ... وهل فكرت برهة في معنى كلمة أزعجك؟ اشرح لي إذا فيما كنت ستزعجني...! إنك تذكرني بجونفياف.

فتضايقت أنه شبهني بصاحبة صالون الشاي ونظرت إليه نظرة متسائلة، فقال:

- نعم، إن جونفياف لن تسامحني على دخولي في حياتها، فهي امرأة منظمة تحب الأشياء - وكذلك الرجال - أن تكون في أماكنها الصحيحة.

- الرجال؟

- أعتقد أنها لا تشعر حقا بالراحة إلا مع الموردين وصائدى النساء.

إزعاج... لقد كان بازيل يتجرأ فى الطلب، حيث كان ذلك من الأشياء النادرة التى قد تعلّمها من حصص الدين المسيحى فى طفولته: " اطلب وستأخذ؛ اقرع وسيفتح لك... "، ألم تكن "رن وادخل" المكتوبة فى شارع ريمون لوسوران مستوحاة من هذه الكلمات؟

كان بازيل يطرق الأبواب بإصرار، خاصة عندما تكون الخدمة لا تخصه، فلم يكن يشعر بالضعف أو الحرج الذى يشعر به صاحب الحاجة. وإذا ما أغضبه رفضٌ غير مبرر، فلم يكن ذلك ليغيِّر شيئا فى مجرى حياته.

واكتشفت رويدا رويدا أنه كان يشكل قلب شبكة شاسعة الأبعاد "فنفوذه العريض" كان يفوق كل ما كنت أتصوره. فقد كان يستطيع الاتصال بوزير ويستقبله نهارًا أحد أساقفة باريس أو ينجح فى إدخال ابن عامل أحسن مدرسة سويسرية.

إن المثل يقول "كل إناء ينضح بما فيه" ولكن بِ ب كان يستطيع أن يعطى أضعاف ما يملك، بحيث إنه يأخذ من أناس ليعطى آخرين. ألم يكن النظام الذى يتبعه يضاعف مستوى التبادل بين شخصين إلى ما لا نهاية؟

وقد علق السيد روجيه مارينللى قائلا:

- إن العالم الباريسى الصغير يتميز بسياسة الأخذ والعطـــاء، فمن يقدم السبت سيجد الأحد...أما ابن عمك فهـــو لا يمتلـــك شـــيئا ليبيعه، ولكنه يعمل وسيطًا دون نسبة. لقد كان بازيل يقبـــل بعـــض الهدايا على الرغم من أنه كان يرى فيها كثيرا من المبالغة، وخاصة تلك التى تأتيه فى الكريسماس ورأس السنة؛ فقـــد كانـــت صـــناديق الشمبانيا تأتيه على الرغم من أنها لم تكن بأسعار مخفضة. ولأنه لـــم يكن ليقدر على رفض هذه الهدايا فكان يقوم بتوزيعها على من حوله فهناك أكثر من حارس مبنى فى شارع جيـــه لوســـاك قـــد شـــرب الشمبانيا فى صحته!

وكان أيضا يتلقى دعوات طوال العـــام للعـــرض الأول فـــى المسرح التقليدى والسينما وكذلك مسرح المنوعات، وهذه النزهـــات الباريسية كانت تسره حيث كان دائما فى صحبة صديقة أو صـــديق وأحيانا أحد أبنائه الكثيرين فى المعمودية، والذين كان يرغـــب فـــى إسعادهم. وقد استمتعت أنا شخصيا بهذه الدعوات عددًا لا بأس به من المرات وكنت دائمًا ما أتعجب من مجموع الأشخاص الذين يهرعون إليه ليقبلوه أو يصافحوه بحرارة.

كان بازيل باتركانى يظهر على أغلفـــة مجلـــة " جـــور دو فرانس" وسط بعض النجوم، ولكن اسمه لم يظهر قط بين الأســـماء،

حيث كان يشار إليه على أنه صديق. أما بالنسبة للجمهور العـــريض فقد كان باتركاني سجيولا حتى إن مؤسسة "هو إز هو" كانت تجهله. فأي مكانة وأي وضع يمكن أن نعطيه لكاتب محـــام يعمـــل موظفـــا لنصف دوام؟

(٢٩)

فى أحد أيام الأربعاء من شهر نوفمبر، قرر بازيل أن يتمتـع بفترة ما بعد الظهر، ولذلك لم يحدد أى موعد فـى شـارع ريمـون لوسوران وأخذ يجوب المكان أمام كنيسة نوتردام للتمتع بالتنزه فـى الشمس وتبادل الحديث مع أصحاب الكتب الذين كان يعـرف عـددا منهم، حيث كان يسألهم بصورة منتظمة عن بعـض الكتـب لـيس لنفسه- لأنه نادرا ما كان يقرأ - بل لأصدقاء يبحثون عن كتب نادرة أو بالية.

كانت روافد نهر السين الضيقة التى تحتضن جزيـرة سـيتيه تذكره، على النقيض، بسواعد النيل الشاسعة. فمن منزل أولاد العـم دابور فى الزمالك، كانت الضفة الأخرى للنهر تبدو وكأنها على بعد أميال، فلم نكن نميز وجوه المجدفين فى وسط النهر وهم ينتظـرون فى أناة الهواء ليملأ أشرعة فلوكاتهم. فبازيل الذى كان يعشق كلاً من باريس والقاهرة، كان يشعر وكأنه زوج لامرأتين.

فقد كان يقول:

- إن لى قلبا فى كلتا المدينتين...

واتجه نحو السلم ليهبط إلى حافة النهر حيث كانت خالية من المارة فى هذا الوقت من بعد الظهيرة وبعدما عبر كوبرى تورنال، سمع جرسًا موسيقيًا، فإذ به يتوقف على بعد عدة خطوات من شابة رفيعة ذات شعر قصير تلعب بالناى المستعرض وهى تنظر إلى نهر السين، فلم تنظر إليه وذلك لأن تركيزها كان ينصب على آلتها، وحتى عندما انتهت من عزف مقطوعتها الموسيقية ظلت جامدة؛ عيناها سابحتان فى المياه الرمادية كأنها وحيدة فى هذا العالم.

و ليقول شيئًا، سألها بازيل:

– أهذا ناى؟

– لا بل مكواة.

فابتسم محاولا أن يتدارك نفسه قائلا:

– إنك تعزفين جيدا ولكن للأسف إننى لا أفهم شيئا عن الموسيقى.

فى هذه المرة استدارت نحوه ونظرت له نظرة ساخرة وقالت:

– من الصعب أن تبدى مجاملة أكثر إقناعا من ذلك.

فضحك بازيل ملء قلبه وقال:

– آسف لأننى قاطعتك ولم أقل سوى سخافات، سأتركك هادئة.

فقالت وهى تستعد للرحيل:

- وأنا التى كنت أظن أنك ستدعوننى لتناول فنجان من القهوة.

فاقترح بازيل أن يذهبا إلى مكان ما على مقربة منهم، يقدم بنًا برازيليًا ممتازًا فقالت:

- إننى فى الحقيقة أكره القهوة هل فى متناول يدك أن تقدم شايًّا بالياسمين؟

فى متناول يدك.... كان من الأحرى بها أن تقول "من جعبتك" كما لو كانت استطاعت أن تعرف كل شيء عن بازيل.

وبطبيعة الحال كان بازيل يعرف رجلاً صينيًا على الجانب الآخر من ميدان سان ميشيل حيث كان يتوافر لديه أكثر أنواع الشاى تنوعا فى باريس.

لقد استطاعت مانويلا أن تستولى عليه بحق، ولكنه كان فى حيرة من أمره، إذ إنه عادة ما كان هو الذى يجذب ويضحك السيدات بإجاباته، أما مانويلا فقد سيطرت عليه وبسطت هيمنتها منذ اللحظة الأولى.

إن ارتداءها للتى شيرت الأبيض والبنطلون الجينز الكالح قد جعل بازيل يعتقد أنها طالبة، ولكنه عرف لاحقا بعدما شربت برادين من شاى اليونان أنها فى الرابعة والعشرين من عمرها وأنها كانت فى أوركسترا لامورو.

وقرابة الساعة السابعة مساءً، تركا الرجل الصينى ليتناولا البيتزا فى محل يقع على الجانب الآخر من الحى اللاتينى، وحتى منتصف الليل تقريبا كانا لا يزالان يتجاذبان أطراف الحديث فى كل شيء ولا شيء على حد سواء، فإذا بمانويلا تقول:

- كلمة مزاج هذه حقا غريبة، فكيف لها أن تعنى فى ذات الوقت طبعا وذوقًا وسرورًا وهوى وغبطة.

فرد بازيل:

- بل إنها تعنى أيضا نوعًا من المزج. المزج البارع، بل المزج التام.

فنظرت إليه صامتة للحظات وهى تمسك بكأسها حيث تركتها كلمة مزاج حالمة.

وبعد يومين، ذهبت إليه فى شقة شارع جيه لوساك ولم يكن معها سوى حقيبة صغيرة وجراب الناى كان يتأرجح على كتفها.

وفى اليوم التالى فى الصباح، تركت المنزل ومعها أغراضها ولم تترك حتى فرشة الأسنان.

عادة ما كان بازيل يحسن التصرف ليحمى، فى شيء من اللياقة، بيته من أن يقمن فيه النساء، أما مع مانويلا فلم يكن ليخشى أن تستقر عنده، فهذه الفتاة الهوائية دخلت حياته خلسة وكأنها ملاك.

(٣٠)

حتى ذلك الحين، كنت أحسد بازيل بشدة على نزواته النسائية، حتى إننى كنت قد وقعت فى غرام لورانس، ثم سابين بعد ما تصورته من أوهام - شأنى فى ذلك شأن كثيرين - حول الجميلة زينة دكاش. ولكن هنا كان الأمر مختلفا، فلم أكن أفهم مطلقا ما الذى وجده بازيل فى هذه الهمجية التى يصعب الاقتراب منها، كما أننى أرى أنها تصغره بأعوام عديدة.

ولم أرد الاعتراف بأننى كنت أشعر بالغيرة منها وكذلك من لوكو، فكنت أعتب على كليهما لا شعوريًا لأنهما يستحوذان على بازيل. ولكنه لم يكن مستعدا لأن يتنازل عن حريته لأى إنسان وهذا ما أدركته مانويلا على الفور وربما هو الذى أعطاها مثل هذه القوة الكبيرة. وفى مساء أحد أيام شهر أكتوبر ذهبنا لنسمعها فى قاعة جافو، فلم نكد نتعرف عليها وهى ترتدى القميص الأبيض والتنورة السوداء. إلا أنها كانت تتميز عن غيرها من الموسيقيات بشعرها القصير ووجهها الخالى من الزينة. فهى لا تتردد فى التعبير عن فكرها بطريقة مباشرة ومتكاملة وهى تترفع عن أى دلال، مهما كان له من أثر على بازيل فهى تجهل كل مظهر من مظاهر التصنع.

وقد علق بازيل عليها مازحا:

- إن مانويلا لا تجيد العزف إلا على الناى المستعرض.

لقد ورث ب بِ ب فن المرونة من أجداده. وعلى الرغم من انتمائه الكامل للبلد الذى تبناه، فإنه لم يستطع التأقلم مع فرنسا المزدوجة التى تبحث عن التماثل المخيب للآمال وتتناقض فيها كل الأطراف: الشمال والجنوب، اليسار واليمين، العام والخاص، العلمانى والكاثوليكى... فهو مجتمع يتسم بصراع دائم وصلابة فطرية تجعله فى صدام مع الكلمات حتى أن بازيل كان يقول:

- إن الكلمات كالأمواج يجب معرفة كيفية التعامل معها.

منذ عشرين جيلاً مضت فى منطقة نورماندى، كان يوجد كل من الجزار الذى يتعامل معه وكذلك صاحبة المخبز، ولكنهما كانا يأتيان من كوكبين مختلفين، حيث إن أحدهما ينتمى إلى مذهب البوجاديه والآخر راديكالى اشتراكى؛ معا كانا يثيران الحيطة لدى الزبائن فمن الأفضل ألا يظهر أحد أمام قرمة الجزار وفى يده رغيف "باجيت"....

فبازيل الذى يأتى من بيئة متعددة الأجناس لا يجمع أهلها دين واحد أو أصل قومى واحد، يصعب عليه فهم هؤلاء الفرنسيين، على الرغم من التشابه الكبير الذى يجمع بينهم، فهم يتضاربون فيما بينهم تضاربًا كبيرًا. فهل يكون الاختلاف ضمانًا للتواد، بينما يصبح التشابه الدقيق سببًا فى الحصول على متعة المواجهة؟

إن التسامح – قطعًا المبالغ فيه – الذى يتحلى به بازيل كـان يثير غضب مانويلا. هكذا كان بازيل، فهو قادر على فهم شخـصية الجبان والكذاب واللص وأكثر الأزواج بشاعة، أو أكثر العنـصريين ابتذالاً. وكان بفطرته يحسن الظن بالنـاس وينظـر إلـى جـوانبهم المضيئة.

أو كما كان يقول:

– الجانب المزهر.

كما لو كان يجد فى كل واحد منهم جانبًا ما من نفسه.

لم يكن بازيل متعصبًا إلا مع غير المتسامحين، وأذكـر فـى هذا المقام المشهد الشهير الذى وقع فى مقهى الشانزليزيه، حيث كان كل العاملين يعرفونه هناك، وقد أعطى موعدا لمستشار سفارة أمريكا الجنوبية الذى أراد أن يقابله سرًا.

وعند بدء الحديث، سأل الدبلوماسى بازيل إذا كان يستطيع أن يبحث له عن فتاتين من الفتيات العذارى وليس من بنات الليل، وذلك لإنعاش الزيارة المقبلة لرئيسه فى باريس فذهل بازيل ولكنه نجح فى أن يسيطر على غضبه، إذ بدأ حديثه بالثناء على المستشار لهذه الثقة ثم علا صوته قائلاً:

– ولكن ربما يعشق رئيسك أيضا الغلمان الصغار؟

فتنبه الزبائن فى الطاولة المجاورة منصتين. وأوضح بازيل حديثه قائلا:

- إننى أذكر لك ذلك لأن مجموعة من الصبيان السود الصغار قد وصلوا لتوهم وهم ممتازون، وسترى ذلك بنفسك. ويوجد بالطبع أيضا الصبيان أصحاب البشرة الشقراء ولكنهم أغلى ثمنًا.

فنظر الدبلوماسى حوله بقلق شديد فقال بازيل:

- اطمئن فإن وزارة الخارجية الفرنسية لن تعرف عن الأمر شيئًا، وأعدك ألا أبوح بأى شيء لأصدقائى الصحفيين. سيأتى رئيسك يوم الاثنين الموافق ١٥، فما زال لدينا الوقت الكافى، إذًا عذراوان وعدد من الصبيان السود الصغار.. آه أقلت لى كم صبيا أحضر لك؟ وقل لى أيضا إذا ما كان ينبغى لى إحضارهم فى محل إقامة السفير فى ميدان فوش أليس كذلك؟ أم فى فندق ما...

فاصفر وجه المستشار ونهض ليرحل، فإذ ببازيل يمسك به ويقول لندل المقهى الذين كانوا يتابعون المشهد مبتسمين:

- الحساب على السيد!

وفى ظل صيحات تعجب عدد من الزبائن، ألقى المستشار ورقة بنكنوت كبيرة وانصرف دون أن ينتظر الباقى.

(٣١)

- ربنا يعوض عليك.

تلك هى الكلمات التى قالها الشحاذ لعازفة الناى التى وضعت له نقودا فى يده وأغاظها ما قال وتعجبت، بينما كنا نجلس فى المقهى حيث قالت:

- ما دَخْلُ الرب فى ذلك؟

فرد بازيل مبتسما:

- إن كنت تعيشين فى مصر لما سألتى هذا السؤال، فهناك الشحاذون أكثر إلحاحًا وربما أيضا إيمانا، حيث إنهم يدعون لك خلال دقيقة كاملة بأن تحل عليك بركة الله.

وذكرت مانويلا فيما تلا لها من حديث تدريبات الأدب التلقائية التى تعلمتها فى طفولتها "ماذا يقال"، شكرا، و"من نشكر"؟

فوجدتها لطيفة أكثر مما كنت أتخيل.

و أضاف ب ب قائلا:

- إن بنات عمى لا يقلن شكرا قط.

وحكى لنا ما كان يحدث أثناء زيارته السنوية للأخوات دبور فيما يسمى بواجبات "عيد القيامة". وعلى الرغم من المساعى الدءوبة (للخطّابات)، فلم يقترب أى عريس من إحدى هؤلاء الفتيات القبيحات الست اللائى يعشن عوانس فى منزل كبير بالزمالك علـــى شـــاطئ النيل. ولاستقبال العائلة كانت الفتيات تنتظمن فى صف واحد يـــشبه صفوف الشرف، وذلك فى الممر الضيق فإذا دخل الضيف وفى يـــده هدية صغيرة يستقبلنه بتنهدات ست، وفى شيء من اللوم يقلن له "مـــا يصحش". وكل عام كنت أراهن مع أولاد عمى أنه عندما أصل إلـــى الأخت الصغرى سأهمس لها قائلاً "يصح" ولكن دائما ما كانت عينى تلتقى بعين مدعو آخر فننفجر فى الضحك...

فأردفت مانويلا قائلة:

- هذا ما كان يحدث عندنا فى عيد الميلاد، حيث كنا نـــذهب على الدوام لعمنا العجوز، القاطن فى مدينة مانوسك، وذلك لنقدم لـــه زجاجة من شراب النبيذ المصنوع فى منطقة تسمى أرمانياك، ودائمًا ما كان يقول لنا بابتسامة كبيرة "أنتم تدللوننى!". وعند رؤية أســـنانه السوداء المكشوفة الجذور، كنا نعتقد أننا ارتكبنا خطأ فادحًا.

ثم بدأت مناقشة حول صيغ الشكر المختلفة فقال ب ب:

- إن ما يهم ليست الكلمات، ولكن ما وراء الكلمات؛ فالـــشكر الحقيقى يتطلب الكرم.

فى الحقيقة لم يكن يوجد من هو أصلح من ب بِ ب لكى يتحدث عن مثل ذلك الأمر، وذلك لأنه على مدار سنوات كان يتـردد علـى أختين توءمين تدعيان جراتيتود وانجراتيتود – أى عرفان ونكـران– اللتين كانتا تتفننان فى إثارة الحيرة بين الناس.

ومن بين المنتفعين من خدمات بازيـل، كـان هنـاك أنـاس يتصرفون بفظاظة بالغة فيحتجون باندفاع بل يهيجون ويموجون. ولم يكن كل ذلك كافيا وكذلك لم يكن ليمر سريعا... إذ إن الحصول على شيء مجانا كان يحثهم على طلب خدمة أخرى على الفور، كما لـو كان ذلك حقا مكتسبا لهم.

ففى إحدى المرات أخذ أحد المقاولين من بلدة مودون يتحـسر فى إحباط شديد فى التليفون بعدما فاتته فرصة شراء سيارة مرسيدس مستعملة وهو يقول لبازيل:

– وأنا الذى اعتقدت أننى يمكننى أن أثق بك!

فندم بازيل الذى كان قد تعرف على هذا الرجل البغيض فـى حفلة ساهرة، حيث إنه قد قال له:

– سيارة ٦ سيليندر، نعم فى إمكانى أن أوجدها لك.

وحينذاك، كان ب بِ ب يجهل أن صاحب الجراج القـائم فـى الحى الخامس عشر الذى كان معتمدا عليه، قد باع السيارة المطلوبة.

فهل يترك المقاول؟ إن نوعًا من الشهامة – أو ربما ما تبقى لديه من بطولة شرقية كان يحثه على طرق جميع الأبواب من أجل الحصول على سيارة مرسيدس مشابهة فهو متأكد أنه سيعثر عليها فى مكان ما فى تولوز أو مودان أو فى ضاحية روبيه...

كان أكثر ما يحبط بازيل هؤلاء المدينون المتناسون؛ فقد مسحوا من ذاكرتهم الخدمات التى تلقوها. وإننى لأتذكر ذلك المطرب الذى كان يتفاخر بصوت عال أنه قد اقتحم باب مؤسسة إنتاج كبيرة، دون أن يذكر أن بازيل قد تدخل ثلاث مرات للحصول على الموعد الذى من خلاله أتيحت له فرصة اختبار صوته ثم تسجيل شريطه المعروف. وهناك مدينون آخرون أكثر وقاحة، حيث إنهم كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفونه، فنظراتهم الفارغة من أى مضمون كانت تؤلمه أشد إيلام وتشعره بأنه لم يعد موجودًا فكان يتمتم قائلاً:

– لا يهمنى نكران الجميل، إذا اقتضى الأمر ذلك ولكن ما يعنينى على الأقل هو أن يعرفنى الناس عندما يروننى فى الشارع.

كان هناك آخرون يجدون ألف حجة حتى لا يردوا المعروف الذى أسدى إليهم. وكان بِ ب لا يبالى ويقول:

– لا بد وأن يجلب تقديم الخدمة السرور للإنسان وإلا فلا داعى له.

وكان يقوم كارهًا بشطب اسم الجاحد من مفكرة تليفونه، حيث إن هذه الخدمة لم تكن سوى "أول خدمة"، فهى علاقة من طرف واحد وقد ماتت فى مهدها". إلا أنه في بعض الحالات، كان المستفيد يظهر بعد عدة سنوات كأن شيئًا لم يكن ليطلب منه خدمة أخرى، فبازيل الذى كان يحق له طرده دون حرج يستقبله ناسيًا هو الآخر كل ما بدر منه فى الماضى وكأنه الابن الضال الذى عاد، وإذا بمفكرته تمتلئ من جديد بعنوان ورقم تليفون، وهكذا تستعيد السلسلة حلقة من حلقاتها.

(٣٢)

ومن أجل لقاء العشاء هذا كان يمكن لواحدة غير مانويلا - أعنى بذلك لورانس موبرجيه - أن تبدى رغبتها فى أن تلعب دور سيدة المنزل. ولكن عازفة الناى آثرت الاختفاء فى الصباح الباكر آخذة أمتعتها القليلة، فقد خمنت أن بازيل كان يريد أن يستقبل ضيوفه بمفرده.

وفى الواقع كان إعداد عشاء لثلاثة أفراد فى بيته، يُعَد أحد الأمور التى تبعث فى نفسه سعادة كبيرة حيث كان يجيد فن اختيار الأشخاص، الذين يتوافقون مع بعضهم بعضا كما لو كان ينسق زهورا أو ألوانا. ولكن أحيانًا كانت تنتابه الجرأة، فذات مساء كان شديد الفرح لأنه سمح لعالم فلك أن يلتقى بمغنى أوبرالى كان معجبا به منذ زمن طويل. كان هذا المغنى يهتم بعجائب الكون ولم يكن يخطر بباله أن يطرق يوما باب عضو من أعضاء مدرسة كولاج دى فرانس فى غرفة السفرة الخاصة ببازيل. وهنا أيضًا تعارف مؤلفا مجموعة "تير أو بوت" وهى الأكثر مبيعًا فى فرنسا؛ وحتى صاحب المكان لم يكن يتخيل مطلقا حدوث مقابلة طيبة بين مهندس ذرة من ساكليه ولاعب كرة قدم من سانت اتيان.

ولكن فى ٩ يناير ١٩٦٥، كان بازيل متوترًا فقد شعر بعدم التوافق بين هذين المدعوين، إذ لم يشرب الرسام سوى الماء مما أضفى على المقابلة نوعا من الفتور منذ البداية، أما بالنسبة لنقابى شركة رينولد فقد كان من الواضح أنه لا يهتم مطلقا بالفن التجريدى، فعندما تركهما بازيل وحدهما لبعض الوقت لإحضار وجبة البايلا الإسبانية، أخذ يتساءل إذا ما كان هذه المرة لم يحسن التصرف أو ارتكب خطأ كبيرًا.

وربما ما شعر به الرسام من استفزاز حمله على الانطلاق فى مدح الاقتصاد الأمريكى، فقال بازيل مندهشاً:

- لكننى كنت أظنك يساريا؟

فأجاب الفنان:

- يمكن أن يكون المرء يساريا وذكيا!

إن المناضل فى اتحاد العمل العام لم يكن يكره المناظرة الخطابية، ولكنه كان يرى أنه لا جدوى من وراء مبارزة مثل هذا الهاوى. فبدا بازيل قلقا ولاحظ أن كليهما لم يتناولا إلا قليلاً من البايلا وندم أنه لم يقدم لهما فخذا لخروف أو لحما مسلوقا.

بدأت المناقشة تفتر، فأخذ بِ ب يبذل جهدا رائعا ومنتظمًا لإحيائها، فانطلق يحكى مغامرة من القصص الكلاسيكى بكل

تفاصيلها وهى تتعلق بأحد أجداد عائلة دبور الذى أصاب عقله الشطط بعض الشيء، حيث إنه كان يريد أن يقلد العصافير فقذف بنفسه من فوق قلعة القاهرة، لولا مرور الدرويش الدوار فى ذلك الوقت لينقذ حياة "رائد الطيران"، وذلك كما تقول الأسطورة.

فإذا بالنقابى يقول:

- أنا من كاليه، وقد انطلق بالقرب منى، بليريو، من شاطئ صغير لينجح فى أول عبور جوى لبحر المانش.

ساهمت حكاية بازيل فى تخفيف حدة التوتر، وأخبرهما الرسام أنه قد عرض منذ سنوات فى لندن لوحة سماها "طيران".

فشعر بازيل بارتياح وذهب ليحضر الجبن، فسأل النقابى الرسام:

- وكيف كانت هذه اللوحة؟

- لوحة تجريدية.

- كيف كان هذا؟

- لوحة من التيل الأبيض

- ماذا؟ فقط ولا شيء مرسوم عليها.

- الركن الأيمن السفلى رُسِمت عليه سحابتان رماديتان كعلامات مميزة لمرور خاطف.

فقال مناضل اتحاد العمل الفرنسى بلهجة تملؤها السخرية:

- كنت أحب أن أرى هذا الشيء بنفسى.

فرد الرسام قائلا:

- هذه اللوحة لم تعد عندى، ولا بد أن أعترف أنها قد بيعت بمبلغ كبير لهاوٍ من كاليفورنيا.

اعتقد بازيل أنه ينبغى له أن يملأ كأس النقابى وقال:

- لقد وصلنى هذا النبيذ من بورجونى الأسبوع الماضى، قل لى بصراحة ما رأيك فيه؟

غير أن هذا العشاء قد فشل تمامًا؛ إذ شعر بازيل بصداع شديد منعه من أن يتمسك بضيفيه اللذين رحلا واحدا بعد الآخر وذلك عقب احتساء القهوة مباشرة، وذهب لينام دون أن يفرغ المائدة حيث كان مغتاظًا وفمه مملوء بشتائم عربية.

وفى اليوم التالى فى فترة ما بعد الظهيرة كان بازيل على موعد مع مانويلا فى حانة صغيرة فى سان جرمان دى بريه، وعندما وجدته مرتبكا وثائرا للغاية سألته قائلة:

- ما أخبار البايلا؟

- سيئة للغاية.

- من الأفضل إذًا أن تغيِّر قائمة طعامك.

- تقصدين أن أغير البلاد! فما أعجب هذه الصلابة، بل هذه الثقة الجامدة التى يتسم بها الفرنسيون! فهم ككتل الجليد ذات الزوايا المدببة وهذا ما يفسر استمرار الحرب الأهلية.

كادت مانويلا أن ترد عليه بأن لا شيء يجبره على التصدى للرصاص فى الصفوف الأولى، لكن الاضطراب الذى كانت تراه فى عينيه هز مشاعرها فقالت له:

- الدنيا هنا مليئة بالدخان، فما رأيك أن نتمشى فى هذه الشمس؟

وقادته إلى الأرصفة وبعدما نزلا عدة درجات، أدركا أنهما فى المكان الذى كان قد تقابلا فيه المرة الأولى، فأخرجت مانويلا الناى وأخذت تعزف عليه فنظر إليها بازيل مفتونًا وسألها:

- أهذا ناى؟

فتهاوت بين ذراعيه.

(٣٣)

كان شخص يدعى إرنست زيمبرباخ يتصل بانتظـــام ببازيـــل ويلومه على الدوام قائلا:

- إنك لا تتصل بى مطلقا يا سيد باتركانى، يبـــدو أنـــك قـــد نسيتنى.

أما بازيل فقد كان يرفع عينيه إلى السماء ويتحدث إليه بنبرة ملولة نوعا ما ليحاول أن يهدئه قائلا:

- لا يا سيدى أنا لم أنساك.

لدى سماعى للمرة الأولى لاسم إرنست زيمبرباخ، أعربـــت عن دهشتى وقلت:

- ألا تستطيع حقا مساعدته يا بازيل؟

- أحاول، لكنه لا يشبع.

- أهو عنيد؟

- بل مدين.

منذ عدة سنوات مضت، زيمبرباخ الذى كان دباغا للجلود فى بلده، كان يحلم بتأجير محل يطل على شارع سان ميـــشيل. وكانـــت الأماكن نادرة ولكن بـ بـِ بـ انتهى به الحال أن وجد له مكانا مناســبا وأيضا رخيصا. حينها كاد إرنست أن يجن من الـــسعادة وأحـــب أن يعطى بازيل قيمة ثلاثة أشهر من الإيجار ليعبر لــــه عـــن امتنانــــه؛ رفض بازيل ولكنه عندما أحس بحيرة الرجل الكبيـــرة، وعـــده أنـــه سيطلبه فى خدمة ما فى أول فرصة. ما إن جاء الأسبوع التالى حتى بعث له بالفعل بأرملة شابه لديها طفلان وتبحث عن عمل فقام الرجل بتشغيلها على الفور. ولكن زيمبرباخ كان يشعر أن ما قدمه لا يكفى ولم يكف عن اقتراح تقديم خدمات أخرى لبازيل. فقد كـــان لتعبيـــر "سداد الدين" مدلول واسع المدى لديه، فقطعة الإسفنج تبقى ندية مهما حاولت عصرها.

وبالفعل قام بازيل بالاتصال به ثلاث مرات متتالية أو أربع، وفى كل مرة يحقق نجاحًا ملحوظًا ولكنه يظل يشعر بمحدودية أثره. فقد كان هذا الدباغ يحمل على عاتقه عبء دينه، الذى لا يكف عـــن محاولة تسديده، فكان دائمًا ما يتصل ببازيل شاكيًا له:

– إنك لم تعد تتصل بى يا سيد باتركانى! يبدو أنك لـــم تعـــد تثق بى.

ظنت مانويلا أنها قد كشفت السر، فعرضت ذات مساء في المطعم ما وجدته وكانت تبدو عليها البهجة، قائلة:

- زيمبرباخ هذا من ألزاس، ويبدو أنه قد تأثر بلغة جوتا.

فرد بازيل بابتسامة متسائلا:

- آه حقًا؟

- فسألته قائلة: أتعرف كيف تقول "مدين" بالألمانية؟

- باللغة الألمانية لا أعرف أن أقول حتى صباح الخير

- "مدين" تعنى "شولدج"

- أحسنت.

- انتظر، أتعرف ماذا تعنى "مذنب" بالألمانية؟

فانتظرت وبعد عدة ثوان قالت:

- "مذنب " تعنى أيضا "شولدج"!

و لكن أيا ما كانت تعنى الكلمات، فلم تضف لبازيل شيئا.

في كل مساء، كان زيمبرباخ ينظف المحل ويلمعه ويجليه، فقد كان يعتني به أكثر مما يُعنى بكنيسة كرملية صغيرة. حيث كانت

حقائب السيدات متراصة فى الواجهة الزجاجية وكأنها فى عــرض. فهذا الرجل الدقيق كان يسكن مع والدته وكان يمر صبيحة كل أحــد قبل القداس للتأكد أن الأنوار مطفأة، على الرغم من أنه كان قد تأكــد فى البارحة قبل رحيله أن كل مفاتيح الكهرباء مؤمنة مفتاحــا بعــد آخر...

كان هذا الألزاسى أنيقًا ودائمًا ما كان يرتدى الحلــل القاتمــة وكل ما هو غير مألوف وينظم حياته تنظيمًا تامًا لا يتــرك مجــالاً للصدفة فلا شيء يزعجه أكثر من ميعاد مفــاجئ أو إلغــاء ميعــاد للتسليم فى آخر لحظة.

كان حب زيمبرباخ للنظام يصاحبه كره كبير للقذارة؛ وكانــت هذه الكلمة تعنى له الغبار ووسخ الحمام - بقــدر مــا تعنــى فــساد الأخلاق، ولكن ألم يكن هو نفسه يعيش فى الخطيئة؟ ألم يكن مــذنبا لأنه لم يعمل قط بالقدر الكافى؟ إن وسواس الخطيئة وهذيان الشعور بالذنب قد تجسدا فى دينه لبازيل، حيث إن هذا المحل الــذى يعطيــه الكثير من أوجه الرضا كان بمثابة الأثر على الجلــد، بــل كــالكى بالحديد الأحمر الذى لا يمحى.

لم يكن بازيل يعرف ماذا يفعل، حتى إنه كان يتراجــع فــى بعض الأوقات. وكان يقول لنا:

- عندما أطلب منه خدمة فإن ذلك يزج به فــى الــوهم ممــا يضر به.

لكن أنين السيد زيمبرباخ، كان يهز بازيل حتى إنه كان يخترع طلبات تافهة فيحاول الآخر أن يلبيها بسرعة وأحيانا كان الأمر مثيرًا للضحك. ففى يوم ما، لم يعرف بازيل ماذا يطلب، فرغم أنه يطلب حزامًا من نوع معين، فإذ به يتسلم ستة أحزمة من جلد التمساح وستة آخرين من جلد العظاية. ومنذ ذلك الحين يتجنب بازيل طلب الدباغ فى أى شيء مادى.

قالت مانويلا لبازيل:

- يبدو أن زيمبرباخ سيكتب لك وصيته.

فرد بازيل:

- إذا سيقوم بالاتصال بى من السماء ليعرض على خدماته!

(٣٤)

لا شيء كان يحبط بازيل مثل الأشخاص الذين يرغبون في تسديد ديونهم على الفور، إذ كان يعلق بمرارة قائلاً:

- إن الزبون الذى يرغب فى تسديد دينه على الفور خسران، وكان أحيانًا يصرخ قائلاً:

- عجيب أمر هؤلاء الأشخاص! فما إن تقدم لهم هدية حتى يسارعون بإخراج دفتر الشيكات. يا له من أدب! أو يريدون أن يردوا لك الهدية وكأنهم يودون محو أثر هذا المعروف، ولو استطاعوا لأعادوا الهدية نفسها فى علبتها ودون فتحها. فهذه هى الوسيلة التى تؤكد لهم أنهم ليسوا مدينين بشيء.

ولقد قال لصديق ناشر فى يوم من الأيام:

- لماذا ننشر كتبا عن فن الاستقبال والأجدر بنا أن نعلم الأفراد فن تلقى الخدمات فهذا أولاً ما يسمى بفن الحياة!

كنت أحتاج إلى بعض الوقت لأميّز تناقضًا ظاهرًا:

إذا ما كان نظام بازيل يقوم على تبادل الخدمات، ألا يفترض ذلك بحق ضرورة "ردها"؟ فى الحقيقة لم يكن الأمر صريحًا وليس

من المفترض أن يكون كذلك فالخدمة ترد تلقائيًا في وقتها. حيث إن إبرام عقد في البداية لا يعني سوى مقايضة رخيصة حتى وإن كانت آجلة:

- هذا مقابل ذاك... وحيث إن مقابل الخدمة لا يتساوى بأي حال من الأحوال مع الخدمة المقدمة، فهناك دائما دين يبقى في هذا الاتجاه أو ذاك وهو الذي يقوي الرباط.

كان بازيل يكره التعبير "خذ وأعطِ" وقد لاحظت ذلك بنفسي لدى زيارتي الأولى له في يوم عيد القيامة.

وقال معلقا:

- إن هذه هي شريعة المساواة العين بالعين والسن بالسن والهبة بالهبة، فتساءلت قائلا:

- ومع ذلك هل يمكن أن نساوي بين خدمتين؟

- إن ذلك يتوقف على أشياء كثيرة يا سيدي الفيلسوف: لمن تقدم الخدمة وكيف تقدمها... والطريقة التي تُتَقَبل بها... إن الخدمة ليست مجرد خدمة بمعناها الضيق بل تفوق ذلك بكثير فهي تتوقف على ما تقدمه وأسلوب التقديم وكل ما يصاحب ذلك من أمور.

لم يعد بازيل يناديني بسيدي الاقتصادي إلا عندما يكون معترضًا على ما أقول، وأصبحت أنا السيد الفيلسوف أو ببساطة أكثر، أرسطو.

إن فكرة ضرورة "الرد" هذى كانت تزعجه أشد ما يكون الإزعاج. فيقول:

- تسديد... رد. يا لها من كلمات غريبة تشعرنى بالغثيان، كلمات مجردة تصل إلى حد البذاءة، بل تحتاج إلى إضافة ليكون لها معنى، فعندما نسدد؛ نسدد الضربات، نرد العدالة أو نسدد الحسابات.

فقلت معلقا:

- لكننا على الرغم من ذلك نرد الخدمات.

فنظر إلى مندهشًا وقال:

- هذا صحيح، ويا له من تعبير غريب! فينبغى أيضا أن تقدم خدمة، فلماذا ترد؟ وخاصة عندما تقوم أنت بها أولا.

وبعد لحظات من التفكير قال بازيل:

- ولكنها ليست أبدًا الخدمة الأولى فكلنا نولد مدينين؛ وأى دين! إنها الحياة التي وهبت لنا وبعد ذلك كل شيء... فالديون تغمرنا. وفى واقع الأمر نحن لا نرد إلا شيئًا قليلاً مما منح لنا فى طفولتنا.

وما الذى أخذه بازيل؟ لقد كان هو نفسه يعجز عن الإجابة، وذلك لأن شخصيته قد تشكلت على هذا النحو منذ طفولته، مثله مثل الفنان الذى يمتزج بمواهبه، أما بازيل فقد كان يجيد فن نسج العلاقات.

وظل يفكر بصوت عال قائلا:

- لا بد دائمًا أن يسأل المرء عن المكان الذى وُهِبَت له فيه الحياة... وها أنا الآن أتفلسف!

أرأيت إلى أين سارت بى ملاحظاتك!

وكأن بِ ب لم يكن يود أن يصور مفاهيمه، فهذا الذى يحب الكلمات كان يكره التعريفات.

(٣٥)

لقد اشتقت لأن أرى سابين التى لم أرها منذ عدة شهور، فقد اشتقت إلى ضحكها وشقاوتها وغضبها... ولكن من ذا الذى كان يمنعنى بعد كل هذا لأذهب إلى مكتبها فى حديقة النباتات؟ كنت أتخيل أننى سأقول لها "إننى كنت مارا من هنا وفكرت أن آتى لأسلم عليك وأعلمك ببعض الأخبار...".

وعندما اقتربت من مدخل المنزل، رأيتها تخرج مسرعة وهى تتأبط لوحة رسم كبيرة، وكان الأتوبيس قد وصل لتوه إلى المحطة لم تكن تريد أن يفوتها، واندهشت عندما رأتنى فى طريقها فسلمت على بسرعة وقالت "أهلا... عن إذنك"، وذلك قبل أن تندفع داخل المركبة وتشق لنفسها طريقا فى المؤخرة أينما يوجد الموقف المكشوف حيث كانت تكلمنى وهى تنهج فقلت لها:

- إننى كنت مارا من هنا وفكرت أن أحضر لأسلم عليك.

- فى الحقيقة هذا شيء لطيف منك ويجب أن نتقابل، وإذا أردت فإننى غدا بعد الظهر سأعمل بالمنزل.

تحركت المركبة فأشرت لها بيدى وأومأت لها برأسى عدة مرات دليلاً على قبول دعوتها.

كانت همرات مطر شهر مارس المصحوبة بالبرد القارص قد اختفت مخلفة وراءها طقسًا شبه صيفى؛ ومن استوديو سابين الذى يطل على حديقة مونتسورى، كانت تغمرنا أشجار الكريز المزهرة، حيث كانت النباتات تحيط بشتى جوانب هذه الحجرة العالية من خلال نوافذها الزجاجية الكبيرة. وكان هناك سلم حلزونى يؤدى إلى غرفة نوم فى الدور الأرضى لا يقفلها سوى درابزين من الخشب.

كانت حافية القدمين لا ترتدى سوى بنطلون قصير وصدرية بلا أكمام لا تكاد تغطى نهديها، وأظن أنها لم تكن تنتظر حضورى فى هذا الوقت المبكر، حيث لم تكن الساعة قد تعدت الثانية ظهرًا، ولكن فترة ما بعد الظهيرة كانت بالنسبة لى، تبدأ فى الثانية خاصة فى هذا اليوم.

قبلتنى على الخدين ثم سألتنى قائلة:

- أتفضل قهوة أم مزيجا من الفواكه الذى أحضره بالمنزل؟

كان هذا المزيج مؤلفا من فواكه غير مألوفة لدى الفرنسيين مثل عصير القصب والروم، مما جعل رأسى تدور. وفى أحد أركان الغرفة - وهو يعد بمثابة صالون- كانت سابين تجلس ممدة ساقيها ومسترخية على عدد من الوسائد، وكانت النافذة المواربة تسمح بدخول هواء منعش مختلط بعبق الربيع وضوضاء أطفال تأتى من بعيد مما جعلنى أشعر بارتياح.

استطردت سابين بعدها قائلة:

- يبدو أنك قد انتقلت إلى مسكن جديد، فقد أخبرنى بازيل أنك الآن تسكن فى شارع دى زيكول.

آه وأنا الذى كنت أستعد لأخبارها عن ابن عمى...

وسألتها متفاجئًا:

- هل رأيتيه مؤخرًا؟

- نعم، فقد ذهبنا معًا نقضى عطلة نهاية الأسبوع فى بورجونى.

فذهلت إلى حد أثار ضحكها وقالت:

- لا تكن أحمق! ماذا تتوهم؟ ذهبنا كصديقين للاحتفال بعيد ميلاد لدى أصدقاء، ثم إن بازيل ليس من النوع الذى يُقدم على مغامرات غرامية سرية؟ عساك لا تظنه الآن يخدع مانويلا!

حتى فيما يتعلق بمانويلا فإنها كانت تتحدث عنها وكأنها تعرفها، فشعرت بالضيق وفضلت أن أنتقل إلى موضوع آخر:

- وماذا تفعلين الآن؟

- تعال وانظر.

كانت هناك لوحات لنوع من أنواع النبات معروضة على منضدة كبيرة حيث قالت سابين:

- من المؤكد أنك تعرف هذا النبات بأوراقه ذات الأطراف المسننة وزهوره المدببة؛ فهذا النبات هو سانتورا الكساندريا الذى أحضره علماء بونابرت إلى مصر، حتى الرسم موقّع من رافنو دى ليل، تمعن قليلا فى دقة الرسم.

مالت سابين لترينى الرسم وملت أنا أيضا فكان نهدا سابين أكثر إثارة من جميع أعمال رافنو، هذا وبلفتة بسيطة رفعت سابين صدريتها وكأن نظراتى قد ضايقتها.

ثم سألتها عدة أسئلة عامة حول نبات الإسكندرية الذى يبدو أننى كنت قد رأيته فى القرية على شاطئ البحر أينما كنا نذهب لقضاء الصيف. وعلى كل حال فهذا الذى قلته بدا لها معقولا.

كانت سابين لا تزال تلاحظ نبات السانتورا الكساندريا وعندما أعدت لها العدسة التى أعطتها لى لمست ذراعها فارتعشت وأدارت رأسها نحوى فالتهمتها عيناى ودون أن أتمالك نفسى لامست كتفها فقالت بنبرة عتاب:

- تبا لك..

ولكن نظراتها كانت تقول عكس ذلك فوقفنا معًا، وكاد وجهانا أن يتلامسا، فقالت لى بابتسامة رقيقة:

- ألم أقل لك تبا لك.

ولامست أصابعي شفتيها فارتعشت وأغمضت عينيها للحظة، فخبأت وجهى فى شعرها وسكرتنى رائحة الخبيزة والنعناع البرى الذى طالما تخيلته. ثم أخذت سابين تفك أزرار القميص رويدًا رويدًا فمرور الوقت لم يعد يشغلها إذ أخذت تمرر يدها على صدرى، يالها من يد حانية... وتلاقت شفاهنا المشتاقة وقادتنى نحو السلم وقالت:

- تعال!

كانت هناك مرتَبة كبيرة على الأرض تفترش الدور الأرضى كله تقريبًا، أما سابين فقد انتهى بها الحال أن جردتنى من ملابسى تماما، ولم أمانع، فإذا بكيانى كله بين يديها اللتين كانتا تكتشفان جسدى كما تكتشفان رغباتى الدفينة.

وأخذت سابين تخلع صدريتها على مهل ناحية بعد أخرى، وإذا بنهديها الخمراوين يتجهان نحوى فيدعوانى لملامستهما؛ كنت أقترب وأبتعد مرة بعد مرة لألامسهما وأذوق عذوبتهما وأتحسس صلابتهما بما فى ذلك كله من نشوى غامرة تدفعنى للاقتراب والابتعاد معًا. وقالت لى مرة أخرى:

- تعال.

والآن كانت سابين تغفو وعلى شفتيها ابتسامة غامضة وبدا شعرها المتناثر حولها كأنه بقعة داكنة على الفراش، ولامست الندبة الحمراء أسفل بطنها فقالت:

- هذا أثر عملية بسيطة أجريت لى وأنا فى التاسعة عشرة من عمرى..

فذلك سر لم يعد بازيل وحده هو الذى يعرفه.

وبعد ساعة من ذلك، تركتها وأنا فى غاية السعادة فلم يبدو لى لون شجر الكريز بهذا البياض الناصع من قبل، ولم أسمع قط تغريد العنادل بهذا الوضوح فى منتزه مونتسكيو كهذه المرة. ولقد كنت أعرف أن هذا اللقاء الأول والأخير وقطعا هى أيضًا كانت تعلم ذلك أكثر منى، حيث إنها لم تقل "إلى اللقاء" وكل ما قالته هو مجرد "سلام" وقَبّل كل منا الآخر على خديه تماما كما كنا نفعل من قبل.

وذلك قبل أن نقطف سانتورا الكساندريا.

(٣٦)

كنت أشعر بالحرج تجاه بازيل، فهل يمكننى أن أخفى عليه هذه المغامرة حتى وإن كانت لن تتكرر وقد تقارب كلانا من الآخر على هذا النحو؟ وفى أول فرصة استجمعت شجاعتى وقلت:

- حدث لى شيء غريب ذات يوم، لقد قابلت سابين...

قال بازيل بصوت فرح:

- آه... حسنا

ولم يتح لى فرصة لأكمل كلامى وقال:

- هذا شأنك أنت وهى يا أرسطو، لا داعى أن تقول لى ذلك.

فشكرته بابتسامة وانتهى الحديث بنا إلى هنا.

كانت صداقتنا تقوى كلما تبادلنا خدمات صغيرة وكلما سمح لى بالاستفادة من معلوماته ونصائحه أو من مقابلاته. إننى لا أذكر أنه قال لى من قبل:

"هل يمكن أن أطلب منك خدمة" فلقد كانت هذه الصيغة تبدو له مضحكة حتى إنه كان يقول:

- إن الطلب لا يستلزم إذنا مسبقا.

كان ذلك يذكره بالمشادة المعتادة بين جيرانه الذين يسكنون في الطابق الأعلى؛ فهما زوجان مسنان يعيشان معا ليتشاجرا ولكنهما لم يستطيعا مطلقا التفكير في الطلاق. فكانت الزوجة تصرخ في زوجها قائلة له:

- هل يمكنك إنزال القمامة.

فيرد الزوج:

-بالتأكيد ولكني لا أرغب في إنزالها.

كان بِ بِ يهمس إلي بصوته الذي لا يقاوم ويقول:

- هل يمكنك أن تقدم لي شيئا يسرني؟

كنت أسرع لألبي نداءه حتى وإن كلفني ذلك التغيب عن محاضرة أو الانقطاع عن عمل ما، فأحيانًا كان يتعين عليّ الذهاب إلى الجانب الآخر من باريس لمقابلة أشخاص غير متوقعين، مثل ذلك الموسيقي المسن الذي كان بالمعاش ويسكن غرفة أسفل السلم في الحي العشرين، والذي كان يجب علي أن أسلمه في يده في يوم عيد ميلاده زجاجتين "فوف كليكو".

كانت الحال تصل ببازيل أحيانا أن ينسى خدمة قدمتها له ويقول مندهشا:

- آه! أأنت الشخص الذى ذهب لتسليم الخطاب؟

فى البداية كان ذلك يضايقنى، لكننى أدركت فيما بعد أن هذا النسيان يشهد على كثرة ما قمنا به من تعاملات. حتى أنا لم أعد أذكر كل تصرفاته تجاهى فلماذا يقال: "تعاشروا كالأحباب وتعاملوا كالأجانب"؟ فبينى وبين بازيل لم يكن هناك أى حسابات، وكما كان يؤكد السيد روجيه مارينللى بأسلوب بليغ نوعا ما:

- ليس للمرء شيء عند صاحبه وله عنده كل شيء.

تُرى من منا كان مدينًا للآخر؟ كنت دائمًا أشعر أننى آخذ أكثر مما أعطى، على الرغم من أن عطائى كان يزداد أكثر فأكثر، فما بيننا تبادل لا نهائى يكاد يكون تشاطرًا.

لقد كنت أفخر بصداقة بازيل، على الرغم من شعورى أنها ليست لشخصى فقط. فمما لا شك فيه أننى كنت أمثل له وسيلة الاتصال الحى مع عائلته وأيام طفولته.

ففى أغلب الأحيان كان يسألنى أسئلة تافهة تدهشنى:

- أين توجد بالضبط شرفة الغطس الخاصة بحمام سباحة نادى سبورتنج بمصر الجديدة؟ وهل الأطفال ما زالوا يلعبون البلى فى الممر المؤدى إلى الصالة المغطاة؟ وهل كان صحيحا أن المقاعد فى حديقة سينما نورماندى قد تغيرت؟

وهو أيضا كان يتحدث عن ذكريات، فقد علمت منه أنه كان في طفولته يستطيع أن يرى أهرامات الجيزة من مصر الجديدة، وكنا نعرف أن معظم لافتات ميدان عباس كانت مكتوبة باللغة الفرنسية. فكان يقول:

- تخيل أن هذه اللافتات مكتوبة بالفرنسية فى بلد عربى كان يرزح تحت الاحتلال الإنجليزى منذ عدة عقود ...

فى باريس، كان ب بِ يعلمنى قوانين المرور وكان يحذرنى من السير فى الاتجاه الممنوع أو الطريق المسدود. وكان يقول:

- يا حبيبى نحن لا نعتبر أغرابا، ولكنهم لن ينظروا إلينا يوما بوصفنا فرنسيين، وربما يكون هذا من حسن حظنا.

وكان بازيل يأخذ علىّ اهتمامى الزائد فى أن أذوب فى هذا الوسط الذى أعيش فيه ويقول:

- يا أرسطو انتبه، لقد أصبحت فرنسيا أكثر مما يجب، فمع مرور الوقت لن تجذب انتباه أحد.

(٣٧)

وفى ربيع عام ١٩٦٥، قابلنا سامى دبور ابن عم بازيل الحقيقى، هذا الجشع، شديد النحافة ترك مصر قبل بازيل بأربع سنوات ليستقر فى كندا. وقد اكتسب شهرة من شرائه للشركات التى تواجه أزمات. فلا أحد يضاهيه فى فن استشعار الإفلاس، وعندما يستحوذ على منشأة متعثرة بسعر جيد، يبدأ أولا ببيع الأسهم وجزء من العقارات، ثم يعلن أنها قد توقفت عن الدفع وبعد شراء الديون بنصف الثمن عن طريق شركة صورية، يقوم بتقليل القيمة الفعلية مستغلا فى ذلك التدخل القضائى. والمنشأة التى قد يتم تخليصها مؤقتا من الورطة بواسطة ألاعيبه، تباع مرة أخرى بأرباح ضعيفة.

وفى سبيل تحقيق الثروة كان يفعل أى شيء حتى ولو كان على حساب والده أو والدته، ويبدو أنه قد أحزن أمه حزنًا شديدًا عندما أجبرها على بيع فيلا بالإسكندرية كانت قد قضت فيها طفولتها ليبنى مكانها بناية من عشرين طابقا. وقد تبدل مظهر هذه المرأة المسكينة فى يوم وليلة، حيث بدت أكبر من عمرها بعشرين عاما حتى أن أحد أفراد العائلة قد علق تعليقا لاذعا وقال:

- سنة عن كل طابق.

وفى كندا كان سامى يسمع الناس وهم يتحدثون يومًا بعد آخر عن شبكة علاقات بازيل وعن نفوذه، فعزم على السفر إلى باريس ليدرس الأمر عن قرب وذلك بغية إنشاء شبكة فى أوربا.

وقد قام سامى دبور بدعوة ابن عمى على الغداء فى فندق كريون حيث قال له:

- إننا لم نتقابل منذ زمن بعيد وقد مرت الأيام ومضى كل منا فى طريقه، فهل لنا أن نتناول الغداء معًا؟

فتجنب بازيل الرد حيث كان هذا الغداء يضايقه وقال لى:

- تعال معى، فربما يجنبنى ذلك الوجود معه بمفردى. وعلى أى حال فإن طالب العلوم الاقتصادية ينبغى له أيضا الاهتمام بالمطابخ حتى وإن ساءت رائحتها.

فقلت:

- ربما لا يرغب ابن عمك فى وجودى.

فرد بلؤم:

- أولاد عم ابن العم هم أولاد عمومتنا.

وكما توقعت كان سامى مستاء من وجودى حتى إنه تجنب النظر إليّ.

وما إن وضعت المشهيات حتى أنزل سامى على بازيل وابلا من الأسئلة وقال له:

- هيا، أخرج ما فى جعبتك.

فرد بازيل مازحا:

- إنها ليست جعبة ولكنها مجرد غطاء.

ففهمها سامى على أنها "واجهة"... فأصغى جيدا ولكن ما تلا ذلك من حديث خيب ظنه؟ فإلام تهدف هذه المؤسسة التى يعاد استثمار فوائدها بالكامل وبصورة منظمة؟، أول الأمر اعتقد أن بازيل يسخر منه.

فرد سامى قائلا:

- لا تقصص على حكايات! فإنك ليس فقط لا تطلب نقودا لكنك أيضا تضيعها، ناهيك عن الوقت المهدر، فقال بازيل:

- ولماذا مهدر؟

- لأنك تعطى من وقتك.

- نحن لا نعطى وقتا مطلقًا، إنما نولى اهتماما... نقدم نصائح، معلومات أو صداقة، لا أعرف؟ حيث إن الوقت لا يملكه أحد ولكنه فقط أداة قياس.

لم يفهم سامى اعتراض بازيل بهذا الشأن فتطرق إلى موضوع آخر وقال:

- إننى أتساءل إذا ما كنت حقا يا بازيل تحسن إدارة مفكرة هاتفك، وذلك لأن كل هؤلاء الناس الذين يدينون لك يمكن استثمارهم استثمارًا مضمونًا. إن من يملك رأس مال اجتماعى مثل الذى تملكه يستطيع أن يفعل به الكثير وأقسم لك بشرفى!

كان من الممكن أن أجد كلام سامى دبور منطقيا للغاية لو كنت قد سمعته منذ عام ونصف قبل أن أعرف بازيل، فلقد كنت أحيانا أسأل نفسى عن نظام بِ بِ عندما تطارده جماعة من الملحّين. ولكن هنا بين القرش الذى يجلس عن جانبى الأيسر، ورجل المزاج الذى أعجب به إعجابًا شديدًا، لم يعد هذا السؤال يدور ببالى.

لقد كانت إجابات بازيل الفاترة تقنع سامى دبور تدريجيا بأن بازيل رجل لا يعى قوة الثروة الكامنة بين يديه، لذا أخذ يخاطبه بلهجة المعلم أو بالأحرى بلهجة الأب ويقول له:

- اسمعنى يا بِ بِ إنك تمتلك رأس مال كبير وهو مجموع ديون الناس المدينين لك. احسبها قليلا! أعلم أنك قمت فى البداية بتقديم خدمات مجانية لتكون هذه الثروة، ولكن اليوم إذا أردت رأيى فإن عدم استثمارها يعد خطيئة "حرامًا" بل عملا غير أخلاقى.

لا أحد يعرف من الذى طلب رأيه، ومما يثير الضحك أنه يتحدث عن الأخلاق، ولكنه دون أن يغير من نبرته واصل حديثه قائلاً:

- يا "بابا" لازم تكون مرن! المهم ما يدخل الخزنة، فيمكن أن يدخل الخزنة على الفور إذا ما قبضت ثمن الخدمة فورا، ويمكن أيضا أن يكون استثمارا أو قرضا إذا أردت؛ وذلك لأن من المعروف أنه لا يوجد قرض شرف دون فوائد وإننى لأؤكد على الشرف، وهنا لم يستطع بازيل إخفاء ابتسامته، حيث كان سامى دبور يقضم بعصبية وبسرعة شديدة قطعة من اللحم ويرد على الأسئلة التى يطرحها قائلا:

- ولكن لماذا قرض؟ لأننا إذا افترضنا أنك تقدم خدمة قيمتها (س) ولم يقم العميل بسداد قيمتها على الفور، إذا فهو مدين لك بقيمة تعويضية قيمتها (س+ص) ولك أنت أن تحدد الفائدة. فيمكنك إبرام الاتفاقات وفقا للفترة الزمنية وينبغى لك أن تتحلى بالمرونة.

كان سامى يقول "نحن" كما لو كان شريكا لبازيل فى شئونه ويقول:

- نحن لا بد لنا أن نقدم الخدمات فى شيء من الفطنة، أى لمن نوقن أنهم سيعترفون بالجميل، حيث إن التوظيف الجيد للنقود يعود بأحسن الفوائد...

كان بازيل ينظر من النافذة إلى العربات التى تدور حول مسلة ميدان الكونكورد ويتذكر فى سرور أحد أوائل الأسئلة التى طرحها عليه السيد بليسيه بونتال عندما وظفه:

- هل تعتبر هذه الإبرة الحجرية مطابقة للمسلة القابعة فى مدخل معبد الأقصر؟ وللإجابة عن هذا السؤال قام بازيل بالبحث فى المكتبة القومية، وذلك لأنه لم يرَ مطلقا معبد الأقصر.

ووضِع الحلو، وحاولت أن أتحدث قليلا مع سامى فخورًا بلقب طالب العلوم الاقتصادية الذى قدمنى به بازيل أثناء التعارف.

وفى عبارتين وجيزتين، أوضح لى القرصان أننى سأضيع وقتًا أقل إذا ما بعت بطاطس محمرة فى الطريق العام، فهو ذاته لم يحصل على البكالوريا ولا حتى الإعدادية ليجمع ثروته؛ واستدار نحو بازيل ليكمل عرضه قائلا:

- حقا لا بد لنا أن نتحلى بالمرونة، ولكن انتبه فالمرونة لا تعنى التسامح الأبله! فالقرض يقتضى الاعتراف بالدين ولا بد أن يصاحبه الضمان؛ فابدأ إذًا بالتأكد من قدرة العميل على الوفاء بالدين.

فى تلك الأثناء كان بازيل يتذوق على مهل حلوى الشارلوت بالكمثرى وأنفه فى صحنه ومن وقت لآخر كان يوجه لى نظرة مثقلة وأكمل سامى قائلا:

- إن حدوث أمر طارئ شر محتمل على الرغم من كل الاحتياطات التى تؤخذ فى البداية، حيث إنه من الممكن أن يعجز أحد العملاء عن رد النقود، ولكن والشكر لله توجد طرق لأحمى نفسى بها من السقوط. كما أن التكليف الرسمى بالوفاء بالدين لم يخترع هباء! فلا ينبغى لنا التساهل فى هذه النقطة.

وأثناء احتساء القهوة بدأ سامى يقدم برهاناً مطولاً حول الديون: الدين اللاغى، والدين المعلق، والدين طويل الأمد، والدين المجمد، والدين الدائم...

وعندما شعر أن ابن عمه ينظر إليه نظرة ساخرة توقف عن الكلام فجأة وبدل من لهجته قائلا:

- بابى أتريد أن أقول لك شيئا؟ إنك تفسد المهنة وعلى أى حال يمكن أن تقاضَى؟

- ولماذا أقاضى؟

- لممارسات غير شرعية أو منافسة غير شريفة.

- آه.. حسنا؟ ومن سيقاضينى؟

- لا يهم من! سماسرة العقارات على سبيل المثال، فماذا تعتقد إذاً؟ حيث لا ينبغى لأحد أن يعمل دون تصريح.

فسأل بازيل فجأة هذا المتخصص فى الحيل وقال:

- وتحت أى مسمى ينبغى أن آخذ هذا التصريح.

- لا أعرف...فذلك شيء يدرس وسوف نرى.

وأكمل:

- المهم هو أن تقوم الصفقة على أساس سليم، ألا وهو الربحية. وعلى أى حال لا يحتاج الأمر أن نعلن كل شيء فكل ما هو ضرورى يمكن أن يدفع نقدًا ويتم تناقله من يد إلى يد وكل ذلك يمكن التحايل عليه. ولكن الأهم هو الإرادة وأنك رجل ذو نفوذ تفتح لك الأبواب بينما تظل أنت واقفا على الأعتاب، فدعنى أتصرف وفى غضون ستة أشهر أعدك بشرفى أنك ستكون واسع الثراء.

فأخذ بازيل وقتا لإشعال السيجارة ثم قال بتروٍ وبصوت خافت:

- إن ذلك أمر لا يهمنى.

فظهرت فورة غضب على وجه سامى وبلفتة يملؤها الغيظ كبس ولاعته الفضية وقال:

- كنت أعتقد أنك ذكى يا بابى.

- أرأيت حتى أنت يمكن أن تخطئ.

رحل سامى دبور إلى مونتريال مذهولاً فى الليلة نفسها وهو يقول:

- ما هذا الرجل إلا طفلا، فهو يلعب دور بابا نويل طوال العام.

(٣٨)

من يرى بازيل يشعر للوهلة الأولى أنه لا يشبه الشرقيين فى شيء، فقد كان على النقيض من كل الخطباء ذوى الأحاديث التقريبية المتفاخرة الذين كانوا يُدخلون البهجة على نفوسنا فى مرحلة الطفولة. والله وحده يعلم إن كان يستطيع أن يعرض على الملأ علاقاته وبطولاته! ولكن هل كان فى حاجة إلى ذلك؟ إن المكانة الاجتماعية التى تحققت له من خلال تناقل الأحاديث كانت لها من الفاعلية والتأثير فى نفسه ما يفوق الشهرة العامة بعشرة أمثالها وهذا ما كان يرضيه رضاء كاملاً.

وكان يسعدِه أيضا ما يثيره من حيرة لدى زائريه من الشرق الأوسط باستقباله لهم فى الدور الرابع فى مكتب شارع ريمون لوسوران.

حيث كان يعلق وهو سعيد بتلاعبه بالكلمات ويقول:

- إن ذلك يحيرهم.

فى الثلاثينيات فى القاهرة، كان جده فرديناند هو المتبرع الأساسى للكنيسة، فقد كان اسمه يظهر دائما على رأس قائمة فاعلى الخير التى تصدرها مجلة الباتريركية، فكانوا يقولون له:

- إن لك قلبًا من ذهب.

كان ذلك يزيد من غروره أكثر فأكثر، حيث إنه لم يقرأ أبدا السطور القاسية التى كتبها الكاتب ليون بلوا ليصف هذه القلوب البرجوازية المتوهجة التى تشبه المعادن فى صلابتها وخوائها الداخلى وانعدام إحساسها.

كان فرديناند باتركانى يطنطن بعطاءاته، فقد كان يحب الظهور والتفاخر بالكرم حتى داخل عائلته. وكانت هداياه ضخمة بل مستفزة مثلها فى ذلك مثل طبيعته الشخصية. ويحكى أنه بمناسبة زواج إحدى بنات أخيه، فاقت هديته كل الهدايا المقدمة فى العرس؛ وذلك بتقديمه للعروسين سيارة كابورليه ذات لون أحمر قانٍ.

وكان ضحايا هذا الإسراف يئنون قائلين:

- مع ناندو يستحيل أن ترد!

فكل هدية كانت تبعده أكثر فأكثر عن هؤلاء الضحايا وتحدث فجوة بينه وبينهم، حتى إن موته قد أراحهم أكثر مما واسى المدينين له.

ترى هل كان من قبيل الصدفة أن نظام بازيل يرتكز على التبادل؟ يبدو أن بازيل قد انتهج نهجًا مخالفا تماما لذلك الذى كان يسير عليه جده؛ وذلك لأن ثروة فرديناند باتركانى كان مصدرها القرض الربوى، أما بازيل فقد كان يقرض دون فائدة، ولكن هل كانت هذه قروضا؟ فهو لم يكن يرى فى القرض إلا المعنى الأول

لهذه الكلمة، وهو أن تثق بشخص ما. لقد سيطر حب المال على حياة ناندو في مصر. أما في باريس فقد صنع حفيده لنفسه عالمًا بلا مال. لكن بازيل لم يجد المثل الذى يحتذى به فى مصر فشخصيته قد تشكلت على النقيض من بعض الأشخاص وهم بلا شك: مظلوم بيه، فرديناند باتركانى، وكذلك وربما بصورة أكبر من الدروج مان "الترجمان" الذى تساءلت مانويلا عندما رأت صورته للمرة الأولى:

- من هذا الشخص العجيب؟

- إن هذا جد جدى من الأم، نديم حجر.

- هل كان ممثلا؟

فأجاب بازيل وهو مبتسم:

- إلى حد ما ولكن ليس على خشبة المسرح فهكذا كان يرتدى فى حياته العملية اليومية.

وكان نديم حجر وقورًا، ممشوق القوام، لقد مارس مهنة الترجمة فى الفترة ما بين ١٨٨٠ و١٩٠٧. وكانت مصر تضم عشرات من هؤلاء الوسطاء الذين يتحدثون عدة لغات. كان معظمهم من الشرقيين الذين يصلون بين الأوربيين وعامة الشعب.

وفى الصورة كان نديم حجر يبدو متباهيًا بشاربه الكثيف المتدلى، حيث يرتدى حلة شرقية بها سيف معقوف، لقد كانت

الصورة مصفرة نوعا ما من القدم وتحمل توقيع استديو تونا، وربما كانت هذه الصورة الشهيرة من تصميم دوريس توتا شخصيا.

لقد أكملت مانويلا ملاحظتها قائلة:

- إن كلمة دروج مان هذه كلمة غريبة تذكرني بكلب الحراسة الذى يسمى دوج مان أو دوبر مان...

فأوضح بازيل قائلاً:

- لا علاقة لها بذلك! فكلمة "دروج مان" تأتى من ترجمان وهى تعنى باللغة العربية مفسرا.

كان نديم حجر يعرف عدة لغات، وكان أيضا يعرف كيف يصرف أموره باللغة الفرنسية، ويعرف بعض التعبيرات فى اللغة الإنجليزية وكان يحلف بالإيطالية أحسن من سائق عربة الروبابيكيا.

وفى الحقيقة، كان هناك نوعان من "الترجمان". فأولئك الذين يمارسون هذه المهمة فى القنصلية هم بالفعل ممثلون دبلوماسيون وهم نبلاء تدربوا فى أوربا واختصاصاتهم تتعدى حدود الترجمة.

وأوضح ب بِ قائلا:

- إن جد جدى لم يكن سوى دروج مان حر فى خدمة عملاء الفنادق الكبرى فى القاهرة، حيث كان السائحون الأوربيون يلجأون إليه ليذهبوا إلى منابع النيل فى دهبية، فقد كان يأخذ على عاتقه نقلهم

من القاهرة إلى أسوان ذهابا وإيابا. وكان هذا يتطلب عدة أسابيع، فكان يأخذ على عاتقه مصاريف المراكب والغذاء والحمير وسائقيها. وأما العقد فقد كان مفصلا للغاية وموقعا في القنصلية؛ فقد كان مسئولاً عن ستة أشخاص، وهم المسافرون الذين يرافقهم. وينبغي أن يكون لكل مسافر سرير بناموسية وملاءات نظيفة يتم تغييرها كل يوم أحد، ومفرش أبيض يتغير كل يومين، وثلاث وجبات يومية من بينها وجبة دسمة.

وعلى الترجمان أن يشرف على تنظيف سطح المركب كل صباح وإنارته طوال الليل.

فعلقت مانويلا:

- يا لهُ من عمل شاق! ألم أكن أقول لك ذلك...

- وليس هذا فحسب، بل إن الترجمان كان مسئولا عن عمل الخبز وتطبيق النظام على المركب وكذلك عن الأعطال التي يمكن أن تحدث للمركب. وعندما يكون المسافرون نائمين يتعين عليه منع طاقم المركب من الغناء. وإذا كان المسافرون لديهم الحرية في الوقوف أينما يحلو لهم، فلم يكن الترجمان يستطيع أن يقلل من هذه الوقفات لخفض تكاليف الرحلة. فأصحاب العمل الذين يعاملونه بوصفه خادمًا قد لا يدفعون الأجر المتفق عليه أو يرفضون إعطاءه شهادة حسن السير والسلوك، وهذه الشهادة ضرورية ليكسب عملاء آخرين.

لم يكن نديم حجر يعلم شيئا عن الحضارة الفرعونية التى كان كثيرا ما يسخر منها ولكن هذا لم يمنعه أن يكون لديـــه جـــواب لأى استفسار. وأثناء زيارة المعابد لم تكن هنـــاك أى نقـــوش فرعونيـــة يستعصى عليه، وكان شرحه الجريء لقـــصص الحـــب الفرعونيـــة القديمة يبهر مستمعيه، ولكن فى المساء على سطح المركـــب، كـــان مسافرو الصباح يجبرون السيد نديم على الالتزام بالنظام وهم بجانب مرشدهم السيد بيديكر.

فى القاهرة كان نديم يصحب عملاءه فى جولة إلى الأســـواق. حيث كان يأخذ باليد اليسرى بقشيشا من الأوربيين وباليد اليمنى نسبة من التجار. وكان محتقرا من البعض ومكروها من الـــبعض الآخـــر حتى إنه كان يتحمل ضرب الحجارة من الأطفال حفاة الأقدام والذين كانوا ينادونه " يا فرنجى يا خواجة" قبل أن يختفوا هاربين فى سحابة من الغبار.

لم يكن نديم حجر ينتمى إلى أية وجهة، فقـــد كـــان جـــسرا بين عالمين وحائطا فريدا ملطخا بنقوش أثرية من الناحيتين. وكمـــا أوضح بازيل:

– فى الإمبراطورية العثمانية كان أجـــدادنا مـــستبعدين مـــن الوظائف العامة والأساسية ولم يكن فى وسعهم إلا أن يكونوا رجـــالا فى الظل أو أن يقوموا بدور الوسطاء؛ حيث كانت معرفتهم بـــاللغتين والثقافتين تجعل منهم شيئا لا يمكن الاستغناء عنه.

إن كونه وسيطا فى الشرق يعتبر شيئا طبيعيا، ولكن هل كان فى استطاعة أحد المهاجرين مثل بِ ب أن يكون وسيطا بين الأوربيين؟ لم أكن أنا الوحيد الذى يطرح مثل هذا السؤال فقد تعرض بازيل أكثر من مرة لعداوة أولئك الذين يندهشون من سلطته، ولكنه لم يكن يقف عند هذه الأشياء، لأنه مقتنع بانتمائه الحقيقى فقد كان يقول:

- وطننا يا أرسطو هو اللغة الفرنسية ولا أعرف إذا ما كنت سأموت يوما فى سبيل هذه اللغة أم لا، لكننى محب للوطن.

ويشهد على ذلك حبه الشديد للتحدث والنطق بكلمات تحتوى على حرف "P" مثل" بيريباتيتسيان".

كان بازيل يفكر بالفرنسية فهو يفقه منذ طفولته براعة اللغة عند موليير وأكثر من ذلك أنه كان يعشقها، وهذا العشق سهل اندماجه السريع داخل المجتمع الباريسى. فلهجته الغنائية وعذوبة نطقه لحرف الراء وكذلك استخدامه التعبيرات الجميلة الآتية مباشرة من سطح "جروبي" فى القاهرة، كل ذلك، كان يزيد من قوة حضوره. فذلك الذى تم انتزاعه من أرضه، لم يتخل عن شرقيته، فها هو يفرض أسلوبه ومرحه ودفءه.

وقد ذكر روجيه مارينيللى وهو يمزح:

- إننى فى وجوده أشعر بمؤشر الترمومتر يرتفع عدة درجات.

فى باريس، كان بازيل الشرقى يعمل مترجما لأشخاص على الرغم من كونهم يتحدثون لغة واحدة، فقد كان مهنيًا بارعًا، لم يكن يترجم ترجمة حرفية ولكنه كان يعرف كيف يخفف من وطأة التعبيرات الجارحة، فهو بمثابة جسر أو حلقة وصل.

كان بازيل يتناقض مع نديم حجر، فلم يكن فى حاجة إلى حلة أو سيف استعراض. حيث إنه لم يكن موظفا عند أحد ولا مرتبطا بأى عقد فهو أكثر حرية وأكثر قدرة من ترجمان القنصل العام فى فرنسا، فقد كان يفسر هو بنفسه فى الظل الجزء الخاص به ألا وهو المزاج.

ألم يكن بازيل شرقيا؟ على العكس، فأنا أعتقد أنه لم يكن هناك من هو أقدر منه على تجسيد "عبقرية هذا الجنس" كما كان يقول الأجداد، فمعه كانت الترجمة تكتسب مزيدا من النبل لتصبح أكثر دقة وأكثر رقة.

وبذلك فإن الترجمان الحقيقى هو بازيل.

(٣٩)

في عيد ميلاده الحادى والأربعين، قدمت مانويلا لبازيل ساعة أوتوماتيكية فقبّلها قبلة حارة ولكن ذلك ضايقها. وفى هذا المساء اكتفى بوضع الساعة فى درجه وظل معصمه يحتفظ بساعته القديمة وهى من طراز جايجر لو كولتر.

لقد أخطأت مانويلا فى اختيار الساعة كهدية له، وهذا ما فهمته فيما بعد وعلى كل حال لم يكن ب بِ، يحب أن يقدم له أحد شيئا أو يتلقى هدية. وكان الألطف بالنسبة له أن يؤدى لأحد خدمة غير منتظرة:

- آلو... هنا بازيل باتركانى تخيل أننى قد وجدت بالصدفة لدى بائع كتب قديمة من بولونى الكتاب الذى كنت تبحث عنه...، لا...لا تقلق لا أحد سيشتريه فلقد حفظه البائع لك... لا عفوا... فإن ذلك يسعدنى.

وكانت هناك سعادة أخرى، أكثر رقة ولا تخلو من غموض: كان ب بِ يقدم أيضا خدمات غير معلنة؛ فعلى سبيل المثال كان هناك تاجر فى مونمارتر يعانى من أزمة مالية ولم يفهم قط سبب

تحول حال صراف البنك فجأة من التعسف الشديد إلى المرونة وكان ذلك فى كريسماس عام ١٩٦٤. ولقد فاجأت مانويلا بازيل وهو يقوم بهذا المعروف الخفى قائلا للتاجر:

- كل يوم يقدم أب أو أم خدمات لأحد الأبناء دون الشعور بالحاجة إلى إخباره.

فردت مانويلا باندفاع:

- إنك لست أبًا أو أمًا.

فسكت هنيهة يفكر ثم وافقها بإيماءة من رأسه وقال:

- هذا صحيح! أنا لا أبالغ ولكنها مواقف فردية ويجب ألا نلجأ إلى ذلك إلا فى الضرورة.

ترى هل كانت هذه الخدمة البسيطة من طرف واحد؟ لقد تحدث ابن عمى طويلا مع الصراف الذى على الأرجح أنه وجد فائدة ما لنفسه، فلقد كان هذا الاتفاق ثنائيًا، فبازيل وحده لا يستطيع أن يفعل شيئًا ولكنه على الأقل يحتاج لنظرة رجل آخر.

لقد لمست مقولة مانويلا "أنت لست أبًا أو أمًّا "... وترا حساسا عند بازيل، وذلك لأنه لم تكن لديه أية نية للزواج أو لإنجاب أطفال، فلم تكن العائلة تمثل له هدفا، ومع ذلك كان بازيل يقضى ساعات طويلة لدى جون وجان يهتم بشئون حياتهما ويضحك ويلعب مع

أطفالهما! ففى حين كنت أنا أشعر بالاختناق فى هذا الجو العائلى وسط تسميع الدروس وتناثر الألعاب على السجادة، كان بازيل يستمتع به وهو فى غاية السعادة.

فقد كان يعشق الفوضى الكبرى التى تسود العلاقات العائلية فهى بمثابة التحدى الهادئ لكل قوانين السوق، حيث لا مجال لمبدأ الأخذ والعطاء، ولا حسابات دقيقة فى التبادلات: فإننى آخذ من أبى وأعطى لابنى وابنى يساعدنى خصوصًا وأنه يشعر بامتنانى لمساعدة جده الذى يعشقه لحد العبادة...

لقد كان تشابك العلاقات العائلية يروق له. وأنا الذى لم أكن أعرف فى ذلك الوقت سوى كلمة" استقلال"، كنت أندهش عندما أسمعه يمتدح التبعية قائلا:

- يا سيدى الفيلسوف، لا يوجد شيء أجمل من أن تكون تابعا لأحد يكون هو نفسه تابعا لك.

فكما كان بازيل منجذبا للدفء العائلى، كان أيضا يستاء من الوجه الآخر لهذا الارتباط حتى إنه كان يتساءل:

- لماذا يتحلى الناس بهذا القدر الهائل من الصبر والكرم مع أطفالهم بينما يظلمون ويضيقون ذرعًا ولا يبالون بأطفال غيرهم؟

فى الحقيقة لم يكن ب بِ يتحدث عن أقارب له، فقد توفى والداه بينما تعيش أختاه عيشة هنيئة مع زوجيهما فى بيروت

ومونتريال. لقد كان يجهل روابط الدم ولم يكن يعرف سوى روابط القلب.

في تلك السنوات كثيرا ما كان يثار كلام حول" صغار الصينيين" الذين كانوا يمثلون الإنسانية المعذبة، ولكن لم أسمع يوما أن بازيل قد أشفق على هؤلاء الصينيين، والذين يصل عدد من يعاني منهم من الجوع إلى الثلثين، فلم يكن يستطيع الاهتمام بنفسه إلاّ من خلال صغار الصينيين الذين كانوا يعيشون في محيطه.

لم يكن عالمه شديد البعد أو القرب ولكن كان عالمه بين الاثنين، حيث إنه كان يقول " عالمي الناس" أو كما كان يقول السيد الفارس بفخر:

"قريبنا " وكان بازيل يتساءل:

- ولماذا " قريبنا"؟.

لقد أوضح لنا ذلك الرهبانُ في القاهرة، ولكنني قد نسيت ولم أعد أفهم مطلقا عبارة "أحب قريبك كنفسك" وإذا كان ذلك يعني أنه لا بد للمرء أن يحب نفسه أولاً، فهذا شيء معقول.

لم يكن بازيل من النوع الذي يفرح لمصائب الناس بل على العكس، فكثيرًا ما رأيته يفرح لنجاح أشخاص آخرين دون أي رياء أو تصنع: كما لو كان ينتفع هو شخصيًا من نجاحهم، ففي ذات مساء في مونبرنص، كان بازيل يلوح بجريدة اقتصادية ويقول مبتسمًا:

– لقد تم اختيار مارينيللى ولوبولك " كمقاولين لهـذا العــام". أليس ذلك شيئا عظيما؟

فردت مانويلا:

شيء عظيم بالنسبة لهما، ولكن ما شأنك فى ذلك؟

فرد بنبرة ماكرة:

– نحن جميعا نعزف مقطوعة واحدة.

لقد كان بازيل يرى فى نجاح كل من حوله تقويـــةً ودعمًــا لشبكته. وكان ذلك واضحا بالنسبة لشركة أوتر تار، فقد سمح توســـع وكالة السفريات بتشغيل عدد كبير من المتقدمين من شارع ريمـــون لوسوران. ولكن هل يمكن اعتبار رد فعله هذا مجرد مصلحة؟ لقـــد خلق لنفسه حياة لا تعرف الحسد أو الغيرة، فلم تكن لديه الرغبة فـــى احتراف مهنة ما أو الدخول فى منافسة مع أى إنسان، فلقد اختار أن يبقى فى الظل وهو يجد متعة فى ذلك، حيث كان يسعد بكل صـــفاء لرؤية أشخاص آخرين يتلألأون فى الأضواء.

كنا فى حانة فى مونبرنص حول جبل من بلح البحـــر وقـــد تطرقت المحادثة إلى الخدمات، فإذ ببازيل يقول:

– إننى لا أبحث عن السعادة فالسعادة هنا تصاحب كل عمـــل أقوم به، فاعترضت قائلا:

ولكنك يا بازيل قلت لى يوما إنك تقدم الخدمة وفى ذهنك المصلحة.

فنظر لى نظرة ماكرة وهو يرتشف رشفة بيرة مؤكدا:

- نعم...هذا صحيح. إن الناس تهمنى.

وبعد لحظات قال:

- توجد ألف طريقة لتقديم خدمة أيها الفيلسوف، ففى بعض الأحيان يخدم الفرد نفسه..أى خدمة ذاتية...

فهل كان بازيل فى حاجة لأن يغرى الناس ويكون محبوبا؟ وهل كان بحاجة لأن يعوض شيئا ما؟ ولكننى إذا ما أردت أن أكتشف نفسية ابن عمى، فلن أنتهى إلى شيء.

فلقد كان فى أحد جوانب شخصيته متأثرا بروبان دى بوا، ذلك الجانب الذى كان يمكنه من التصدى للتحديات وكشف الظلم، حيث كان يشعر أن لديه إرادة لكسر النظام شديد العقلانية وتوسيع حدود الممكن وتلك هى الفانتازيا، أو طريقة لتحقيق أحلام طفل بعصا سحرية وبساط طائر.

(٤٠)

لم يكن ب بِ يذكر من ذا الذى أتى بإيفيت برتونيار إلى شارع ريمون لوسوران؟ فقد كانت تلك السيدة فى الثلاثين من عمرها، وهى ذات طلعة بهية ووجه خال من الزينة كما أن لها نظرة عميقة ولمّاحة.

وبخلاف زائرين آخرين يلفون ويدورون حول مقاصدهم قبل الإفصاح عنها، كانت إيفيت تمضى إلى هدفها مباشرة: فقد تلقت دعوة الرب وترغب فى أن تصبح راهبة، ولكن الأبواب كانت تغلق أمامها. فبعدما تم رفضها من قبل الدومينيكان وراهبات الناصرة، رفضتها أيضا سيدات سيون دون سبب واضح.

وقالت لبازيل:

– لقد جئت إليك بعدما انقطعت بى السبل، فقد قالوا لى إنك تتمتع بنفوذ كبير.

فلم يكن من ب بِ سوى أن كشف عن حيرته فهو بالفعل يعرف مسئولين فى مؤسسات دينية، ولكن مثل هذه الأشياء لا يتم تسويتها عن طريق التوصية، فكل جمعية لديها معايير للقبول خاصة بها.

فرد وهو يفكر بصوت عال:

- ربما أستطيع أن أوصلك بإبراشية "المساعدات للروح القدس"، إنها ليست منغلقة على نفسها إلى حد كبير.

فردت الزائرة:

- لا ستعاملني مثل الأخريَات...

-لا بد أن نقصد من هو أعلى.

فسأل بازيل مرتابًا:

- تقصدين مجلس الأنكليكان؟

فقالت:

- لا... بل أعلى.

كتم بازيل ضحكته بصعوبة وقال:

- إذن البابا؟

فنظرت إليه إيفيت نظرة نافذة بعد لحظات من الصمت وقالت بصوت مرتعش:

- أعلى.

فتلاشت الابتسامة من على شفتى بازيل وقال:

- انتظرى، إننى...

فقاطعته بإيماءة من رأسها وقالت:

- نعم هو وحده الذى يستطيع أن يسمح لى أن أكون فى خدمته.

كان بازيل يحاول أن يفكر وهو يلعب بقلمه، فقد رأى أناسًا شتى. فالبعض كانوا يعتبرونه بمثابة وكالة للزواج، وكان آخرون يرونه منجمًا أو عرّافًا، بل وجد نفسه قائد مدفعية يطلب منه البعض التحدث سريا مع وزير الدفاع فى مسألة تتعلق ببيع قطعة أرض عسكرية كانت مثارا للجدل فى منطقة ميلون، ليتدخل لدى الوزير المختص! وأنقذ بازيل الأرض.... نعم لقد استمع إليه الوزير، وطلبات أخرى عجيبة ولكن أبدا لم يطلب أحد منه أن يتوسط لدى الرب!

تظاهر بازيل بأنه لم يفهم وقال:

- إننى لا أستطيع إدراك ما الذى تنتظرينه منى.

- بيد أن الأمر بسيط، يقال إنك لا تقاوم، وإننى لأشعر بذلك فمنذ دخولى هذه الغرفة أحسست بدفء غريب يملؤنى.

وجلست ترجوه بلهجة المتوسلين:

- أرجوك توجه إلى الرب وحدثه بشأنى!

ونهضت لتفك زرارين من فستانها وتتركه لينزلق على أردافها حتى بدت عارية! وكان خيال جسدها يظهر على باب النافذة فنظر بازيل إليه مرعوبا... فلها نهدان غاية فى الروعة، وأرداف ممتلئة و... أشياء أخرى، وإذا بخادمة الرب تقترب من النشوة وتقول: "خذنى فإننى له ".

ففكر لثوان وتذكر الشخصين أو الثلاثة الموجودين فى صالة الانتظار، فهذه المجنونة من أجل الوصول إلى الرب، كانت ستهب نفسها للشيطان، فإذا طلب منها أن ترتدى ملابسها كان يمكن أن يؤدى بها ذلك إلى حالة هستيرية، لذا كان ينبغى التوجه إليها بكلمات منتقاة... فتبادر إلى ذهنه فجأة جملة من الإنجيل ولا يعرف لماذا قالها:

- ليس اليوم ولا الساعة.

فترددت إيفيت للحظة ثم بدأت فى الكلام بلهجة حادة:

فتمتم بازيل وهو يغض بصره وهى ترتدى ملابسها:

- بالتأكيد لك مستشار روحانى؟

فأعطته اسم قسيس فى إبراشية سان ميدار فى الحى الخامس، فقال لها وهو يصاحبها فى هدوء إلى باب الخروج:

- سوف أتصل به وأتحدث معه فى هذا الأمر وأبلغك الأخبار.

عندما حكى ابن عمى لنا هذا المشهد، بكيت من الضحك. أما روجيه مارينيللى فقد تظاهر بالغيرة قائلا:

- تقول "جسم رائع" أليس كذلك؟ من الواضح كما فهمت أنك ستتابع الأمر ولكن فى سان ميدار ربما يرفضون أن يسلموك الملف...

تظاهر بازيل بالابتسام وهو يلعب فى ساعته، حيث استحوذت هذه المغامرة على تفكيره.

وفى الأسابيع التالية، شعرت للمرة الأولى أن بازيل يسيطر عليه قلق حاد. حيث كانت نظراته مليئة ليس فقط بالخوف بل الرعب أيضًا، فما كان يظنه البعض حول مدى قدرته يصيبه بالدوار، فهل وعى فجأة التصاعد اللانهائى واللامحدود لشبكته؟

(٤١)

في بداية عام ١٩٥٦، توسعت شبكة بازيل توسعًا كبيرًا وانتقل بازيل شيئا فشيئا إلى نطاق آخر، فإذا بحرفية البدائيات تتحـول إلـى نشاط اقتصادى ضخم. وأحيانًا كان يتلقى مكالمات من أماكن بعيـدة ولأغراض شتى فهناك أبراشية ريفية فى بلدة توجـو تطلـب كتبـا، أو مؤسسة أمريكية ترغب فى تمويل مشروعات للمعـوقين ذهنيـا، أو يطلبه رجل أعمال متعطل فى مطار سيدنى وفى حاجـة ماسـة لمكان على طائرة الخطوط الجوية الفرنـسية... ودون النظـر إلـى الإجراءات الروتينية وجد السيد بيير لوساج نفسه مـضطرا للـذهاب إلى روتردام لحضور ندوة علم المحيطات وأدرك فى آخر لحظة أنه يحتاج إلى حارس لشقته. أما السيد زيمبرباخ، فكـان يبكـى علـى الهاتف للمرة المائة ليسدد دينه.

كان تناقل الأحاديث فعالا للغاية: فكلما نجح بازيل فى تقـديم الخدمات زاد الطلب عليه. ومنذ ذلك الحين، كان وجود بازيـل فـى شارع ريمون لوسوران يمتد حتى الساعة الثامنة أو التاسعة مـساء، وأحيانا كان ينتهى به الحال إلى تسوية بعض أعمالـه فـى منزلـه، حتى إن جرس التليفون لم يكن يكف عن الـرن حتـى فـى عطلـة نهاية الأسبوع.

وفى فبراير، أصيب بازيل بذبحة حادة فعالجها بتناول مختلف العقاقير دون أن يأخذ قسطًا من الراحة، وكنا أنا ومانويلا نلاحظ فى شيء من القلق تلك الدوامة التى يدور فيها بازيل. ويبدو أن خيوط الشبكة التى نسجها بِ بِ كانت تزداد كل يوم حتى كادت تخنقه. حيث كان يذكرنى بأحد الكتب المصورة فى طفولتى، حينما كنا نرى جاليفر مقيدا على الأرض بعدد هائل من الروابط الصغيرة التى قامت بتثبيتها جماعة الليليبوتيان.

فمنذ متى أصبحت الروابط الاجتماعية تشكل عقبة؟ فهل تجاوز الحد المسموح به أم بالغ قليلاً؟ فلقد بدأ هو نفسه يشعر بثقل شبكته الشاسعة. وقد اضطر فى يوم ما، نظرا لكثرة الاتصالات الهاتفية التى كانت تحول دون إتمام مقابلاته، أن يحدد بعض المقابلات فى أحد المقاهى كما كان يفعل منذ اثنى عشر عاما.

وذات مساء لحق بنا وهو عكر المزاج فقد وصل من الضفة اليمنى بتاكسى كان قد ركبه، متعجلاً وشاردًا، حيث قال "مساء الخير يا أستاذ"، فإذا به يفاجأ بصوت يرد عليه فى شيء من الضيق "مساء الخير يا مدام" صحيح أن السائقة كان لها هيئة رجل، لكن ذلك لا يغفر له عدم انتباهه لذلك.

لم يعرف حينها بازيل كيف يتصرف، وكان يخشى أن يزيد الأمور سوءًا عن طريق الاعتذار، فتظاهر أنه لم يسمع. وفى

الطريق كان جالسًا دون حراك فى مقعده يرقب الصمت؛ فقد كان مغتاظا من نفسه، أما السيدة فكانت تقود بسرعة بل بأقصى سرعة كما لو كانت تنتقم لنفسها. وعند الوصول قبلت الأجر على مضض على الرغم من البقشيش الكبير الذى تركه لها وشكرها بكل حرارة ممكنة ولكن نبرته لم تكن تدل على ذلك.

فقالت له مانويلا:

- لا تقلق ستتغلب المرأة على الأمر، فهؤلاء النساء يقاومن الشدائد، أما أنت فإنك متعب للغاية فهذه المرة الثانية التى تصاب فيها بذبحة خلال عدة أسابيع، فاحترس يا بازيل وإلا سينتهى بك الحال إلى ما لا ترضاه.

وفى أثناء العشاء نجحنا فى إقناعه بحاجته إلى مساعدة، ودارت مناقشة غامضة بعض الشيء حول سير العمل فى مكتب شارع ريمون لوسوران، حيث بدأت مانويلا فى بيان أهمية أجهزة الرد الآلى التى بدأت بعض المؤسسات فى استخدامها حتى إن معهد الكونسرفتوار قام بشراء جهاز له بالفعل، واتفقنا فى النهاية أننا سنتناوب أنا ومانويلا على الذهاب إلى هناك مرتين فى الأسبوع فى فترة ما بعد الظهيرة وذلك لضمان استمرار العمل.

بدأ هذا النظام فى بداية الربيع، حيث قدم لنا ابن عمى مفكراته التليفونية، كان لديه ثمانى مفكرات مفتوحة طوال هذه السنوات

وجميعها ذات زوايا مبينة للحروف الأبجديـــة وذات جلـــدة مـــضلعة تتميز بألوانها فالأول أسود والثانى أخضر والثالث بنى فاتح إلـــخ... ولكن درجة بلاء كل واحدة منهـــا كانـــت تـــسمح نـــسبيًا بترتيبهـــا ترتيبًا زمنيًّا.

ففى المفكرة الأولى كان أول اسم فى حـــرف الـــدال خاصـًــا بالسيد أدمون دورمينيو، ١١ ميدان فوندوم، وكذلك كان اسم ابن أخيه طبيب الأعصاب جون بيير دورمينيو مدونًا فى وسط هذه الـــصفحة بعنوان مشطوب وعنوان جديد فى شارع ماليزارب.

ومن مفكرة لأخرى كنا نستطيع أن نستكشف أبعـــاد الـــشبكة الخاصة ببِ ب، فإذا كان المجلد الأول لا يحوى سوى عناوين فـــى باريس مع كثير من الأسماء الشرقية، فإن المجلدات التاليـــة كانـــت تتسع أكثر فأكثر لتشمل الضواحى والبلـــدان الأخـــرى، ولا توجـــد أية إشارة إلى الخدمات التى تم تقديمها أو الحـــصول عليهـــا، حتـــى أنه تمتم قائلا:

- إن هذه مفكرات تليفونية وليست بسجلات للحسابات.

وجدنا أيضا العديد من بطاقات التعارف التى قد تـــصل إلـــى الآلاف كانت مكدسة فى علب أحذية موضوعة على الـــرف، فمـــن الواضح أن بازيل لم يكن يستخدمها، فهل كان يحتفظ بهـــا احترامًـــا لمحدثيه فحسب؟

إن أحدا غيره كان سيضعها فى ملفات أو يرتبها فى بطاقات ولكن ذلك لم يكن دأب بازيل! حيث إنه كان يكتفى بثمانى مفكرات معتمدا كل الاعتماد على ذاكرته القوية.

ومنذ الأسبوع الأول فشل نظامنا فشلا ذريعا، فلم يكن المتصلون يرغبون سوى فى التحدث إلى بازيل باتركانى وكانوا يقولون" إن الأمر شخصي" وأحيانا يرفضون حتى ترك أسمائهم.

ولم يكن بوسعنا إلا أن ننقل الرسائل إلى ب بِ، فلم نكن نرد على العروض أو الطلبات، فلم تكن هذه المفكرات الأبجدية تسعفنا فى شيء. بازيل فقط هو الذى يعرف كيف يتصرف، فهو يتذكر خدمة كانت قد قدمت له منذ عدة شهور أو عدة سنوات. ومن أجل مساعدة (أ)، أو (ب) لا أحد منا يمكنه طلب (س) أو(ص) أو(ع)، فزمام الأمور كانت فى يده، ودونه لا شيء ينجز. فها هو عدو الوحدة هذا على النقيض ينسج شبكة يتمركز وحده على قمتها.

كانت مانويلا عندما تفرغ من عملها تحضر الناى، وكانت تعزف فى صالة الانتظار بينما كنت أتصفح المفكرات أو أفتش فى علب الأحذية دون قصد محدد.

وبعد الظهر، جذبنى صوت موسيقى أجهلها فلحقت بمانويلا فى صالة الانتظار حيث كانت واقفة وكل تركيزها على آلتها. فتأثرت حتى إننى ذرفت الدمع وانتابتنى رغبة ملحة فى أن أضعها

بين ذراعى فأدركت وجودى ونظرت إلى خلسة وهى تعزف. فترى هل أدركت تأثرى؟

وفكرت فجأة فى بازيل ودون أن أنبس بكلمة عدت إلى المكتب تخنقنى العبرات فى حين كانت مانويلا تواصل عزفها فى الغرفة الأخرى.

وفى شهر مايو عرض مجموعة من الأصدقاء على بازيل أن يلحق بهم فى فيلا بونيفا فى جزيرة القرص، وشجعناه أنا ومانويلا على قبول هذه الدعوة. أما فيما يتعلق بمكتب شارع ريمون لوسوران، كنا سنتوقف عن الذهاب، لأن ذهابنا لا يجدى كثيرا. فتبًا للهاتف الذى يرن فى الفضاء.

وبعد اثنى عشر يوما، عاد بازيل من جزيرة القرص وهو عازم على المحافظة على صحته. ولكى يؤكد لنا ذلك اصطحبنا فى أحد أيام الاثنين داخل عربة مكشوفة – كان قد أخذها من صديق له صاحب جراج – إلى بلدة فونتانبلو. وقضينا وقتا ممتعا؛ فكنا نجرى ونلعب بين الصخور كالأطفال وكافأتنا مانويلا بعزف سيمفونية لموتزرت وهى جالسة تحت شجرة زان عمرها مائة عام.

وبعد شهر، عاود هذا الإيقاع المميت ظهوره، وأصيب بازيل بذبحة مرة أخرى وكان يشعر بآلام فى مفاصله، ولكنه لم يكن

يستطيع أن يتجاهل كل هذه الطلبات؛ بل إنه لم يكن يرغب في ذلك وكان يردد قائلاً:

- إن ذلك يسعدنى.

ولكن شيئا فشيئا، كان يبدو ذلك وكأنه واجب. كانت أعصابه مشدودة وكان يغضب من لا شيء. ولسوء حظ مسئول كبير في الضرائب أنه اعتذر في التليفون لعدم تمكنه من مراجعة ملف، فإذ ببازيل يثور عليه ثورة عنيفة. أما بالنسبة للسيد إرنست زيمبرباخ، فقد تلقى للمرة الأولى رد فعل عاصفا من بازيل الذى قال له:

- لقد ضقت ذرعا بعروضك! لا أريد شيئا ولا شيء، أسمعتنى؟ ولا حتى رباط. إن شكواك ترهقنى فلا تعذب نفسك أكثر من ذلك، اخرج من محلك وروّح عن نفسك بالله عليك! فإنك بائس...

وفى شارع ريمون لوسوران كانت قاعة الانتظار مكتظة بالناس، فلم تكن هناك مقاعد كافية للأفراد الذين كانوا أحيانا يتناوشون للدخول أولا، وعلى السلالم كان الصعود والنزول مستمرا ولم يكف الكلب في الدور الثالث عن النباح وبدأ الجيران في الشكوى. والمصيبة الكبرى أن بازيل كان قد تم استدعاؤه من قبل قسم الشرطة التابع للحى العشرين وتم إحضار لوكو إلى القسم مغلول اليدين بعد مشاجرة مع رجال الشرطة. وبعدما كان ابن عمى يستعد للنوم، ارتدى ملابسه مرة أخرى وركب سيارة أجرة عقب اتصال

هاتفى أجراه مع أحد معارفه القديمة فى الشرطة القضائية وفى طريق العودة قال للوكو:

- كنت تستحق أن تبقى فى السجن، لا تفعل ذلك مرة أخرى، أتسمع؟

كان بِ ب متعبا وكانت ذاكرته تخونه؛ فلم يعد يتذكر أرقام تليفونات يستخدمها باستمرار، بل كان ينبغى له أن يبحث عنها فى مفكراته. ففى الماضى لم يكن ليختلط عليه الأمر مطلقا فيخلط بين صاحبة مخبز نويى التى جاءت لزيارته مرتين أو ثلاث، وبين زوجة أخى جون أورونج التى قابلها فى الشارع، فتأثر من هذا الموقف تأثرًا كبيرًا.

ومنذ ذلك الحين، كنت أراه فى صورة جديدة وكأنه رجل أثملته العلاقات، فأصبح شرهًا، دائم التقلب والهوائية.

فترى هل كان يهرب من شيء؟ فقد كان فى أحلامه يجد نفسه وسط الكلاب النابحة فى وول استريت، لتعلن عن عروض وطلبات تمثل فى نظره قمة العبث.

يبدو أن لا شيء يستطيع أن يمنع هذه الآلة الكاسحة من الدوران. فشبكة بازيل تكبر وتتضخم، حيث إن مشروعه لم يكن بالشيء الذى يمكن بيعه أو التنازل عنه أو إعلان إفلاسه، فلم يكن يتسنى له عمل الحساب الختامى، ولكن على الأقل كان من الممكن

أن يتوقف عن تلقى الطلبات ولكن كيف يتجاهل كل هذه العروض- كعروض التوظيف والسكن والخدمات المختلفة التى كانت تنهال عليه؟ كان يعذبه شعور بالمسئولية والواجب بينما كانت توجهه دائما فطرته وغريزته.

وقبل عدة شهور، عندما كان يودع سامى دبور أمام مطعم كريون، قال بِ بِ فى هدوء:

- أنت الآن قد أصبحت غنيا، فماذا تريد أكثر من ذلك؟ فلا أحد حتى روكفللر يستطيع ارتداء أكثر من حذاء فى المرة الواحدة.

ومنذ هذه اللحظة بدا هو نفسه، كالثرى الذى تسحقه ثروته، فهو عاجز عن التخلص منها، حيث أصبح مليونيرًا وفى طريقه لا محالة لأن يكون مليارديرا.

(٤٢)

وفى يوم من أيام الأحد من شهر أكتوبر أصيب بِ بِ بحمى شديدة، واضطر أن يقضى اليوم فى بيته. كانت هذه هى المرة الأولى التى يرقد فيها بازيل فى سريره منذ أن أصيب بالحصبة فى العاشرة من عمره! وفى اليوم التالى كان يقف على قدميه ولكنه لم يحتمل الوقوف لفترة طويلة، فاضطر أن يرقد ثانية، أما مانويلا فقد أقلقها شحوب وجهه فأصرت على استدعاء الطبيب الذى أوصى بالراحة وبعض المقويات.

وفى الأيام التالية، كان بازيل يعانى من آلام فى المفاصل وقد صاحب شحوبه المستمر، حالة من الوهن العام غيرت كثيرًا من ملامحه، ولكنه لم يكن يريد أن يُغلّق أنشطته.

وفى ذات صباح، لاحظ نقطة دم على وسادته، واستطاع الطبيب الذى كان يسكن فى العمارة المجاورة أن يحضر قبل الذهاب لعمله. وقد لاحظ وجود قرحة فى الفم وتضخم فى الغدد، فطلب من بِ بِ أن يخلع ملابسه، ثم بدأ يجس لوقت طويل منطقة الكبد وقال له:

- ربما لا يوجد شيء خطير. عينة دم ستسمح لنا بالتأكد من ذلك، سأرسل لك ممرضا.

وفى اليوم التالى بعد الظهر اتصل الطبيب ببازيل وأخبره قائلا:

- لقد سلمنى معمل التحاليل لتوه نتائج التحاليل، لديك نسبة مرتفعة جدا وغير طبيعية من كرات الدم البيضاء. يلزم أن تخضع لفحص أكثر دقة، ولكن فى مستشفى وفى قسم متخصص، فى هذه الحالات فأنا أود أن تكون بين أيدٍ أمينة.

إن بازيل بنفسه هو الذى استدعى البروفسور فالادييه الذى أصبح صديقه بعد تبادل خدمات على مر السنين، ولقد كان هذا المتخصص البارز فى أمراض الدم يحضر مؤتمرا فى ليون، وما لبثت سكرتيرته أن أخبرته بالاتصال، حتى قام بالاتصال بطبيب شارع جيه لوساك، ثم قرر أن يقدم عودته إلى باريس. وفى اليوم التالى استقبل ابن عمى فى المستشفى فى قسم أمراض الدم بمستشفى سان لوى، حيث أُجرِىَ له بزل للنخاع الشوكى.

لم يكن البروفسور فالادييه من أولئك الذين يكثرون الحديث وخاصة مع شخص مثل بازيل باتركانى، حيث قال بعدما جلس على حافة السرير:

- إن النتائج ليست طيبة.

فتساءل بازيل بصوت مرتجف:

- سرطان؟

- نعم لوكيميا ولكنها تنتشر بسرعة فائقة، وسوف نتصدى لها على الفور.

ولكن البروفسور فالادييه سارع بالتحدث بنبرة مطمئنة تميل إلى المرح. وفجأة شعر بازيل وكأنه أُلقى فى وسط الصحراء عند الكيلو ٦٥ فى طريق الإسكندرية ...

ودون الدخول فى التفاصيل، شرح له فالادييه ضرورة تدمير النخاع المريض وزرع نخاع سليم.

فسأل بازيل:

- هل هناك فرص للشفاء.

فرد عليه:

- نعم بكل تأكيد.

ولكن فى هذا النوع من الأمراض لا بد من العناية والإرادة، سآخذ على عاتقى مسألة العناية، أما الإرادة فأنا أثق بك.

(٤٣)

عندما لفظ بازيل كلمة" لوكيميا"، شحب وجه مانويلا فجأة ولم تستطع إخفاء ارتجاف شفتيها... أما بالنسبة لى، فقد كنت أعتقد أن رجلا قويا مثل بازيل لن ينهار. قام البروفسور فالادييه بإخلاء أفضل غرفة فى قسمه. وقد لاحظ جميع الطاقم أن الرئيس يولى اهتماما خاصا لهذا المريض وكانوا يتصرفون معه وفقا لذلك. وعلى أية حال فإن كلا من الممرضين ومساعديهم رجالا ونساء، لم يستطيعوا مقاومة جاذبية بازيل باتركانى.

هذا وقد تقرر وضع جهاز الرد الآلى سواء فى المنزل أو فى مكتب شارع ريمون لوسوران، وذلك حتى لا تتراكم الاتصالات الهاتفية التى كانت ستظل دون رد على أى حال من الأحوال. ولكن فى المقابل كان يجب علىّ المرور يوميا على هذين العنوانين لكى آخذ البريد وأطلع عليه وأفرزه وأعلم ابن عمى بالخطابات الأكثر أهمية.

ومن وقت لآخر كان يقع فى يدى مظروف غير منتظر. مثل دعوة زواج الآنسة لورانس موبرجيه والسيد جون برترون

دو فلورى فى كنيسة سان بيير فى مدينة شايو. حيث يقيم القداس قس يسوعى من أقارب العريس. وبحركة لا إرادية شممت بطاقة الدعوة وحاولت أن أميز رائحة العطر المختلطة برائحة دخان التبغ هذا الذى جعلنى اضطرب.

كنت أجهل أن هناك شخصيات شهيرة مثل هذا الوزير المؤيد للمذهب الديجولى أو هذه الروائية ذائعة الصيت يمكن أن تتبادل الحديث مع بازيل على هذا النحو التلقائى، ولكن هناك الكثير من الخطابات المكتوبة بأسلوب يتسم بالعناية والتواضع والحذر، والتى لا تخطئ فى التعبير عن حال كاتبيها.

وذات يوم، ودون أن أقصد فتحت ظرفا مكتوبا عليه "شخصى" يحتوى على ست ورقات مكتوبة بخط دقيق وبتوقيع جونفياف أش مالكة صالون الشاى فى الحى السابع عشر، ولم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقرأها حتى النهاية، فقد كان خطابا مليئًا بإشارات وتساؤلات وعبارات عتاب.

فقلت لبازيل وأنا أعطيه الظرف المفتوح:

- أنا آسف، لم أر كلمة "شخصى".

ولدى تعرفه على الخط ابتسم وقال:

- مسكينة جونفياف! فمن أجل أن تبعدنى عن أى امرأة دونها كانت على استعداد أن تطعمنى كل يوم البابا بالويسكى والميل فوى.

ولكن هل لكى تكتسب قدرا من الأهمية أخبرت صديقة طبيبة الأمراض الجلدية، منذ عام ونصف بازيل بزيارتى؟ ومع ذلك أتذكر جيدا الوصف الذى وصفته به: رجل يختال بسلطته، فاسد، يتعامل مع الناس كما لو كانوا عرائس متحركة.

وأضافت قائلة: "وقد أكون أنا أيضا إحدى هذه العرائس".

ربما قصدت أنها عروسة عاشقة...

أراد فالادييه بدء العلاج الكيميائى على الفور. وفى غضون ثلاثة أسابيع، عاش بازيل بألمه فى عزلة ليست كاملة، حيث كان يمكنه الاتصال تليفونيا، أما الزيارات فكانت محدودة.

وللدخول إلى غرفته كان يتعين علينا غسل أيدينا بعناية وارتداء معطف خاص وكذلك قناع "ماسك".

وسرعان ما تساقط شعره كما كان يعانى من بعض اضطرابات فى الجهاز الهضمى والتهاب متكرر فى الغشاء المخاطى بالفم. وكانوا يضعون شاشا بالكحول على ذراعيه المتورمين من كثرة الحقن، وذلك لحماية الأوردة ولكن لا شيء مما يحدث كان ينتقص من روح الدعابة التى يتمتع بها. فقد كانت المستشفى توفر له الراحة وتعفيه من الخدمات الكثيرة التى يتعين عليه تقديمها. حتى إنه كان يبتسم ويتلاعب بالكلمات قائلا:

- أنا خارج الخدمة.

ولكن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا، فبعد يومين من دخوله مستشفى سان لوى، تبادر إلى ذهن ممرضة، كانت تنتظر دون جدوى مكانًا لابنتها فى حضانة ما، أن تتحدث عن مشكلتها أمامه، وفى اليوم التالى وجدت الطفلة مكانًا لها فى إحدى الحضانات.

وكانت معرفته بالعاملين داخل المستشفى تزداد يوما بعد آخر حتى أصبح يقوم تلقائيا بدور الوسيط بينهم.

فكان يقول مندهشًا:

- هؤلاء الناس الذين يحتكون بعضهم ببعض كل يوم غالبًا ما يجهل الواحد منهم كل شيء عن الآخر!

ألم تكن هناك سيارة مستعملة معروضة للبيع فى الطابق الأول لدى أحد موظفى الإدارة، وفى الوقت نفسه يذهب طبيب التخدير المساعد ليبحث عنها بعيدًا وهى على مقربة منه؟ كان يكفى فقط أن تطلب من السيد باتركانى، فقد شهدت الغرفة رقم (٣) مكانة جليلة لدى العاملين وكذلك لدى المرضى. وحتى مسئول المالية فى المستشفى، عندما كان يتعين عليه السفر بسرعة إلى إسبانيا استفاد من وساطة بازيل حيث نصحه البروفسور فالاديية قائلا:

- للحصول على "باسبور" فى نفسه اليوم نفسه أيها القس، فإننى لا أرى سوى حلين إما تدخل إلهى أو تدخل الحجرة رقم (٣).

عندما ركز بازيل انتباهه على محيط المستشفى المحدود، رجعت به الذاكرة اثنى عشر عاما حينما كانت شبكته تقتصر على حفنة من الأشخاص. وكم كانت سعادته عندما يستطيع التدخل في هدوء ولديه من الوقت ما يكفى، مستعيناً بخبرته السابقة وعلاقاته التى لا تحصى. إنه حقا لمزاج! فلقد كان أداؤه يشبه أداء أستاذ في علم الفلسفة يحاول اجتياز امتحان البكالوريا.

كان الحراك والعجلة أكثر ما يلفت انتباهه فى عالم المعاطف البيضاء هذا، فهو الذى كان دائمًا يعطى لكل شيء حقه ويتمتع بكامل وقته، يرى من الآن فصاعدا، المعالجين وهم يجرون من مكان لآخر وكأنهم ندل المقاهى الفرنسية، فممرات المستشفى كانت تعج بضجيج هرولة الممرضين وكأنها خيول تركض. إلا أن هذه الحركة السريعة لم تمنع البطء الشديد غير المفهوم والانتظار اللا نهائى. لم يكن لدى بازيل أى سبب فى أن يشكو من البطء أو الانتظار، لأنه منذ البداية كان يعامل معاملة مميزة لم تلبث أن تأكدت، ولكنه كان يلاحظ المرضى من حوله مجبرين على الصبر...

فالمرضى يرنون الجرس وينتظرون، ولم يكن الحال كما في شارع ريمون لوسوران "رن وادخل" ولكن "رن وانتظر". كان هؤلاء الرجال والنساء يقضون جزءا من نهارهم ينتظرون حمام الصباح وكذلك زيارة الأطباء المعالجين والوجبات التى كانوا يبتلعونها دون شهية، وكذلك اختراق الأدوية المستمر لأجسامهم والتعدى على خصوصياتهم.

كان الخضوع للمعالجين يثير لدى بازيل مـــشاعر مختلطـــة. فإذا كان يتألم من ذلك فشأنه شأن جميع المرضى، أما هو فكان يحب أن يتصرفوا معه كطفل، حيث كان هذا الخضوع المحمـــود يجعلـــه مرتاح البال، وكان يقول:

- قد يشكل الخضوع للآخرين سرورا، ولكن ما هـــو غيـــر محتمل هو الخضوع لنظرات الآخرين وحكمهم.

ولكى نروّح عنه فى حجرته بالمستـــشفى، كنـــا مـــن وقـــت لآخر نلعب لعبته المفضلة (سكرابل) ففى أحد الأيام فى فتـــرة مـــا بعد الظهيرة وضع أربعة حروف على الـــسياج وهـــو يقـــول فـــى سرور واضح:

- ها هى أجمل كلمة فى اللغة الفرنسية!

فقالت مانويلا: حسنًا وهى تقرأ كلمة (مضيف).

فسأل بازيل:

- هل تعرفين معنى كلمة (مضيف)؟

فهزت كتفها وقالت:

- ذلك الذى يدعو.

فقلت بتلقائية:

- لا ذلك الذى يُدعى.

كان بازيل يشرب لبنا فقال:

- اتفقا إذن.

كانت هذه الكلمة ذات المعنى المزدوج تروق له، فقد كانـت تعبر بشكل ما عن حقيقة أمره.

(٤٤)

ذات مساء حكى لنا بازيل قائلا:

- منذ سن السابعة لم أكن أسمع سوى كلمة "برافو".

كان يقصد بذلك أن يقول إنه لم يكن يسمع كلمة "أحبك"...

فى أول الأمر كانوا يقولون له إنهما مسافران فى "رحلة طويلة"، ولم يعرف إلا بعد ثلاثة أشهر عن المأساة التى أودت بحياة والديه فى حادث سيارة على الطريق الصحراوى الجديد بين القاهرة والإسكندرية، حيث انقلبت بهما سيارتهما البان هارد السوداء عدة مرات قبل أن تشتعل. وعندما اكتشفها البدو بعد عدة ساعات، كان الدخان لا يزال يتصاعد منها، أما الجثتان اللتان بداخلها فكانتا غير واضحتى المعالم.

حدث ذلك ولم يكن قد مضى وقت طويل على الاحتفال بعيد ميلاد بازيل السابع، حيث أهدى له والداه ساعة ثمينة مزودة بذرين، فاندفع نحوهما يقبلهما. وكانت ضخمة على معصمه الصغير ولكنها كانت تملؤه فخرا، وبعد هذا الحادث الأليم، استضافته ليديا وزوجها المحامى بقطر دبور هو وأختاه. وكان لهذين الزوجين اللذين يسكنان

فى فيلا كبيرة بمصر الجديدة، سبعة أولاد ويمكن القول إن فى هــذا المنزل الجديد تبدد الدفء العاطفى فلا شيء كان ينقص بازيل سوى أن يأخذه والده بين ذراعيه أو يرفعه فى الهواء ليتلقاه بضحكة عاليــة ولا شيء... أيضًا سوى أن تغمره والدته بــالقبلات وتــضمه إلــى صدرها حتى لا يكاد يلتقط أنفاسه.

وهنا عند الخالة ليديا والعم بقطر، كان بازيــل متــى يــشعر بالحزن يستولى على قلبه، يذهب ليخفى دموعه فى أعماق الحديقــة، حيث كان يجلس القرفصاء، تلك الحديقة التى كانت فيما مضى برجا للحمام؛ ولكنه تهدم وتحول. وهناك كان يسمع دقات الساعة وكأنهــا دقات قلبه، وكانت هذه التميمة تعطيه قوة وشجاعة حتى وإن كانــت هذه "الرحلة الطويلة" ستمثل له نهاية أو حدًا.

فوالداه اللذان فى السماء كانا قد أخبراه بذلك وهو لا يشك فــى قولهما، فقد كانا من ذلك العالم السماوى يشجعانه ويساندانه. وتَجَــسد حداده على والديه فى أن يتمتع بكل لحظة من لحظات حياتــه، ولــم تتوقف قط رغبته الشديدة فى الحياة، بل كانت تصل أحيانًا إلى حــد السعار. فقد كانوا يقولون له:

– والداك المساكين!

ولماذا مساكين؟ فهو يراهما كما فى الصورة المعلقــة فــوق سريره، شابين جميلين يتحليان بالابتسامة ويرتديان معــاطف الــبلاد

الباردة التى كانت تناسبهما تماما، بعد عودتهما من شهر العسل في سويسرا. وعلى الرغم من أن الخالة ليديا والعم بقطر كانا يتثاقلان ويضع عليهما الزمان بصماته، فإن والديه لم يتغيّرا فها هما شابان جميلان ومبتسمان، وسيظلان كذلك إلى الأبد. لقد كان والداه يثيران إعجابه وأبدا لن يخيبا آماله.

وبعد ما كبر لم يسع بازيل كثيرا إلى البحث فى تاريخ والده – شاب مستهتر ومسرف – ولا فى تاريخ أمه التى ولدت وفى فمها ملعقة من فضة، فهو بلا شك كان يخشى أن يشوه هذه الصورة المثالية. كان يتمسك بالصورة التى تعرض والديه بالمعاطف الثقيلة والتى كانت معلقة فى مدخل شقته فى باريس وفى حجرة نومه وفى مكتب شارع ريمون لوسوران، حيث كانت هذه الصورة هى الصورة الرسمية إذا صح القول.

ولبنيته القوية فهو يُعَد طفلا بلا مشاكل، كان يذهب إلى مدرسة جيدة ويمارس أحيانا أعمال الكشافة ويذهب إلى نادى إسبورتنج فى منطقة هيليوبولس ويندمج فى محيط العائلة وينضم إلى حفلات الغداء فى أيام الآحاد، وأيضا يقضى الإجازة فى الإسكندرية... كل ذلك كان يسمح له بأن يعبر فترات المراهقة الصعبة بشكل أفضل من غيره. وكان يقوم بما يتبادر إلى ذهنه وهو على قناعة تامة من أن والديه فى السماء يوافقانه. ولا أحد يستطيع أن يثبت له غير ذلك؟ فكونه يتيمًا كان يجعله أكثر حرية من أولاد

خالته. ولا بد أن نعترف أن كلا من خالته وزوجها، كانا مشغولين تماما بأولادهما الذين كانوا يستحوذون على اهتمامهما إلى حد كبير. فسامى على وجه الخصوص قد تعرض للرفد المتتالى من ثلاث مدارس مختلفة بالقاهرة بسبب الغش مرة ولعبة الراكت مرة أخرى، لكن المرة الثالثة قد تَعَدت هذه الحدود، فقد كانت إثر فضح أمر المراقب المالى، الذى ضبطه سامى خلف أبواب المطابخ فى وضع مخل مع خادمة...

إن المتابعة التى حظى بها بازيل كانت تقل عن تلك التى يحظى بها غيره ممن هم فى مثل سنه، ولكن هذا لا يعنى أنه كان مهملاً كما أنه عرف كيف يستثمر هذا الوضع؛ فاستقلاله النسبى قد أعطاه نضوجا مبكرا حتى وإن كان فى مشاعره لا يزال طفلاً. وفى سن السادسة عشرة لدى معرفته بأول حبيبة سمع كلمات حب حقيقية ومنذ ذلك الحين أخذت تزداد رغبته فى الإغراء، هذه الرغبة التى تمتزج بالبحث الدائم عن العلاقات.

"والداك المساكين..." فحتى سن البلوغ لم يكن ب بِ يرى فى مصر سوى نظرات الشفقة، وقطعا كان يريد أن يهرب من هذه النظرات بمجيئه إلى باريس وحيدًا يتيمًا.

لقد كانت هياكل السيارات المحطمة إثر الحوادث متناثرة على الطريق الصحراوى تحرقها الشمس. ولكن عند الكيلو ٦٥ لم يكن

يتبقى شيء من سيارة الباتهارد السوداء، حيث رُفع حطامها المحترق بمبادرة من العائلة. كان هذا الطريق يحزن بازيل، وكل صيف عندما يأخذ هذا الطريق كان يتوقف عند المكـــان المفتــرض أنـــه مكـــان الحادث، ويخطو عنده عدة خطوات فى الصحراء التى تجتاحها رياح دافئة، بحثا عن مقبرة خيالية، حيث كانت هذه المقبرة تقلب كيانه.

لقد تركاه والداه رغما عنهما. وعندما اختار هو الحياة، قـــرر ألا يبقى وحيدا أبدا، أليس ذلك ما كان يقوده إلى الهرب من السلطة؟ فالرئيس لا يستطيع أن يعتمد إلا على نفسه وهنـــاك مئـــات الأمثلـــة لرجال سياسة أو أصحاب أعمال من حوله يؤكدون ذلـــك. فـسلطته الواسعة لا يمارسها إلا مع الآخرين أو من خلالهم.

لذا فقد اختار أن يعيش ولكن الموت لم يكف عـــن ملاحقتـــه، وصديقاته المتعاقبات لم تفهمن لماذا يبدو وكأنه يضع عراقيـــل أمـــام العلاقة القائمة لإنهائها، فإذا كان بازيل يرفض أن يـــرتبط بـــامرأة، فوراء ذلك خوفه من أن يفقدها؛ فقد قال لمانويلا:

- أبدا لن يكون لى أولاد وذلك لأنهـــم قـــد يتـــألمون لرؤيـــة والديهما "يرحلان فى رحلة"، لن أغامر أبدا فـــأمنح الحيـــاة لأطفـــال مصيرهم اليتم.

(٤٥)

وفى صباح ذات يوم، حضر لوكو إلى المستشفى مطأطئ الرأس بعدما فُصل للغياب المتكرر من المؤسسة التى عينته منذ ثلاثة أشهر. فقال له بازيل وهو غاضب:

– أتعرف من تكون؟ صبى مراهق!

وقام بازيل فجأة ليتخذ وضع الجلوس على السرير، فانقلب جهاز نقل الدم ووقع قليل من الدم على السرير، فاندفع لوكو فى الممر لينادى الممرضة وعندما رأت ما حدث لم تستطع أن تمنع نفسها من توبيخ المريض قائلة:

– تبا لك، ما هذا الذى فعلته؟ إنك لست بصبى!

فدوى صوت ضحكتيهما فى الغرفة.

كان الشيء الوحيد الذى يجمع بينهما هو اليتم وكذلك ...

وقال بازيل:

– إن اليتيم يشبه القطار فهو يضم عدة درجات وقد حالفنى الحظ أن أسافر فى الدرجة الأولى.

وكانت هذه وسيلته المهذبة والمبالغ فيها إلى حد ما لإسداء الشكر للخالة ليديا والعم بقطر اللذين لم ينجحا فى العناية به أو فى تنشئته تنشئة سليمة. ولكن فى هذه العائلات الكبيرة لا أحد يعرف معنى الوحدة، حيث يمكنك مشاهدة ثلاثين أو أربعين شخصا على شاطئ الإسكندرية مجتمعين حول حفلات الغذاء السعيدة. وهكذا عرف بازيل شيئًا من الدفء العائلى والحنان والضحك.

كان لوكو فى الثانية عشرة من عمره عندما اكتشف والدته ميتة فى المطبخ وفى يدها زجاجة مكسورة. وبعد ذلك بفترة بسيطة رحل والده فشعر الصبى بالذنب من اختفاء أمه وتخلى والده عنه. ولم يستطع أى شخص فى مؤسسة الأحداث أن يبعد عنه هذا الإحساس، أو أن يشمله بلمساته الحانية التى كان يعجز عن طلبها.

وبعد ذلك، انضم لوكو إلى مجموعة الأحداث بالقرب من مدينة نونتار ولم يعترف به مجتمعه، ولكن اعترفت به جماعة هؤلاء الأصدقاء عند ارتكابه لبعض الأعمال المستهترة والمجنونة التى كانت تثير إعجاب زملائه الذين يكبرونه. وقد صرح له بازيل أثناء لقائهما الثانى فى بار مونبرنص قائلا:

- فى الحقيقة، إنك تموت خوفًا.

اغتاظ لوكو وكاد أن يخرج سكينة، إلا أنه فى المرة الثانية وعد بازيل أن يبتعد عن لعبة القمار الروسى وأنه سيفى بوعده على الأقل فيما يخص هذا الأمر...

ولقد كان فالاديبه يشرح لبازيل:

- إن الهدف من العلاج الكيميائى هو تدمير النخاع المريض، ولكن الخطورة تكمن أيضا فى تدميره لما تبقى من نخاع سليم، حيث إنك تعانى أيضا من نقص فى كرات الدم البيضاء، ومن هنا يأتى خطر العدوى. هذا إلى جانب أنك تعانى من نقص فى الصفائح الدموية مما قد يتسبب فى نزيف، وهذا الشحوب وضيق التنفس يتطلب نقل كرا ت دم حمراء.

وهكذا كان بازيل يتلقى دمًا من أناس آخرين، مما كان يثير لديه شعورا بالضيق غير متوقع ويجعله يفكر فى الأمر تفكيرًا عميقًا؛ فكان يتذكر حالة الطفلة ذات السنوات السبع التى خضعت لواحدة من أكبر عمليات القلب المفتوح وكان ذلك فى عام ١٩٥٨،١٩٥٧ أى بعد افتتاح شركة أوتر تار بوقت قصير. كانت تلك الفتاة تدعى دانيال وقد تم تجهيز استثنائى لهذه العملية؛ حيث تم تحضير مسبق لعشرات اللترات من دم المتبرعين الذين يتم استدعاؤهم كل نصف ساعة.

لم يكن ب بِ يستجيب مطلقا لنداءات الصليب الأحمر، والآن يتساءل عن السبب فهل كان ذلك لخوفه من الحقن، أم لنفوره من رؤية الدم؟ أو بكل بساطة لأن ذلك لم يكن من عادات بيئته فى مصر؟

لم يطرح أحد فى المستشفى على بازيل هذا السؤال، فكل مريض وكل جريح يستفيد من نقل الدم حتى وإن لم يكن قد تبرع بالدم فى يوم من الأيام، حيث إن هذا النوع من تأمين الحياة كان يتساوى فيه كل من المشتركين وغير المشتركين. أما بالنسبة لبازيل، فالمجانية تمثل له أمرا طبيعيًا ولكن هل هناك أثمن من الدم يدفع من أجله؟ إلا أن بازيل الذى لم يكن قد دفع شيئًا وَجَدَ من يدفع له، لكن جهله بهذا الشخص كان يصيبه بالاضطراب. فما المقصود من هذا التكتم؟

وقد كان يقول:

- غير معقول ألا أعرف مطلقا من أعطانى دما؛ فالمتبرع كان دون شك يحب أن يتعرف عليّ.

لقد كانت الآلة الطبية تتدخل بين اثنين ليتقاسما أعز ما يملك كل منهما.

فالطب وحده هو الذى يقرر إذا ما كان الأول قادرا على العطاء أو غير قادر، وإذا ما كان الثانى محتاجا للأخذ أم لا.

ولكن أين يكون السرور فى هذا الأمر؟ فالخدمة بالنسبة لبازيل كانت أولاً مناسبة لإقامة علاقة وعقد روابط مع إنسان ما، إلا أن هذه الأنبوبة المجهولة المصدر والتى لا تحمل سوى رقم، كانت تحيره حيرة كبيرة.

وعندما أخبر فالاديه والممرضات بتساؤلاته، لم يتلق سوى إجابات متفق عليها مسبقا، أما الإجابة الصحيحة فكانت على يد سباك كان يرتدى "العفريتة" وقد أتى ليصلح صنبورًا فى غرفته حيث قال له:

- إننى أتبرع بدمى منذ خمس سنوات أى منذ أن وقع أخى ضحية حادث طريق، ثم تم إنقاذه عن طريق نقل الدم.

فقال بازيل:

- فهمتك. باختصار إنك تقوم بالمثل.

- ماذا. لا ليس بالمثل! وذلك لأن عندى عامل ريزاس سلبيًا، وحيث إن فصيلة دمى نادرة جدا، فليس لى الحق فى الامتناع عن التبرع. أتفهم!

- نعم فهمت، وعسى أن يحفظك الله من حوادث الطريق ...

- آه.لا،لا أعتقد أننى سأتعرض لذلك الأمر! حيث إننى لا أسافر سوى بالقطار وذلك أيضا نادرا ما يحدث.

لم يستطع بازيل أن يخفى ابتسامته وقال:

- ألا تحب السفر؟

فقال:

- ما أحبه هو أن أمتلك بيتا صغيرا على شاطئ نهر المارن وأمارس هواية الصيد بالشبكة.

فقال بازيل:

- إذن لا يتبقى لك إلا أن تجد البيت الصغير.

فرد قائلا:

- أتمزح! إننى لا أقدر على ثمنه.

فقال بازيل:

- لا، إننى على يقين أنه بالإمكان أن تجد منزلا بسعر معقول، فإذا أردت يمكنى أن أوصلك بأحد أصدقائى ليرتب لك هذا الأمر.

ولا أعرف إن كان قد ساور الشك عاشق الصيد أم أنه لا يحب التورط فقد رد قائلا:

- سأفكر فى ذلك. أشكرك.

لم يصر بازيل على الأمر وعاد إلى الحديث السابق قائلاً:

- وهل ترى أنه من الطبيعى أن تتبرع بدمك دون أن تأخذ ثمنه؟

- ثمنه. أتريد أن أتلقى ثمنا للدم؟ هل تعتقد أننى أفقد شيئًا... ألا تعرف أن الدم يتجدد على الفور.

فوافقه ابن عمى بإيماءة من رأسه ثم قال:

- ولكنك فى النهاية لماذا تتبرع بدمك؟

فهز الرجل كتفيه وقال:

- أنا لا أعرف لماذا ولكنك تسأل أسئلة غريبة. ولكن لماذا لا أتبرع بدمى؟

- سؤال أخير، قل لى:

- ألا يضايقك الطابع السرى الذى يحيط بهذا المنح؟

فرد السباك مندهشا:

- سرى؟ وكيف يكون سريًا؟ إننى لا أخفى نفسى ولكننى أذهب مع الزملاء الذين يتبرعون بدمهم مثلى. ولكن لديهم عامل ريزاس موجب، والعاملون فى نقل الدم يعرفوننا جيدا ويقدمون لنا فنجانا من القهوة وبسكويت، حيث يسود جو لطيف فى غرفة التبرع.

فقال بازيل:

- أشكرك شكرا جزيلا.

ولكن ترى، هل قدم بازيل الشكر للرجل من أجل المعلومات التى حصل عليها، أم من أجل كرات الدم الحمراء التى علت قيمتها منذ ذلك الحين؟

وفى اليوم التالى أخبرنى بازيل قائلا:

- تخيل أن الدم الذى يجرى فى وريدى دم إنسان آخر، ولكن من ذلك الأخ المجهول وربما تكون أختا أو زوجة، أتفهم ما أقول!

لقد كانت الدموع فى عينيه وهو يقول:

- وها أنا ذا مرتبط بها أو به أو بهم جميعا... بروابط الدم.

(٤٦)

لقد انتهى العلاج الكيميائى على الأقل مؤقتا، لـــذلك اســتطاع بازيل استقبال عدد أكبر من الزوار الذين لن يحتاجوا بعد ذلك للرداء الأبيض أو القناع (الماسك).

وكان أول من سارع بالمجيء السيد إميل الفارس الذى كـــان يؤكد لبازيل:

– لقد كنت أصلى من أجلك يوميا.

لكن بازيل لم يكن يصدقه تصديقا كاملا... وذلـــك لأن هـــذا اللبنانى كان يرغب فى تلقى خدمة. وبعد حديث طويـــل دار بينهمـــا بشأن تمويل مشروع يكفله تحت رعاية إميل الفارس لصالح جمعيـــة تخدم المدارس المسيحية فى صعيد مصر، سرعان ما درس الفـــارس الملف دراسة وافية وفعالة.

كان بازيل قد نجح فى إقناع جون وجان أورونج اللذين كانا قد أتيا مرتين لزيارته فى المستشفى، ألا يأتيا مرة أخرى، حيـــث كـــان يحدثهما عبر الهاتف حوالى مرتين يوميًا؛ مما سمح له أيضا بالتحدث مع الأطفال، أما بالنسبة لإرنيست زيمبرباخ فكان يصيبه الرعب عند

ذكر المستشفيات فهى فى نظره مصدر لجميع الميكروبات، وقد اعتذر عن عدم مجيئه عن طريق خطاب لطيف ومعه حافظة تواليت أنيقة من جلد الثور، ومن الواضح أن توبيخ بازيل له عبر الهاتف منذ عدة شهور لم يخفف من عبئه.

أما السيد بيير لوساج الذى كان شاردًا كعادته، خلط بين مستشفى سان لو ومستشفى سان جوزيف. فنزل فى الحى الرابع عشر وبعد أن وجد العنوان الصحيح استقل سيارة أجرة قادته إلى باريس من الجهة الأخرى ولكنه لم يستطع أن يرى بازيل، حيث كان ميعاد الزيارة قد انتهى، وكان عليه فى اليوم التالى أن يسافر إلى مونتريال لحضور مؤتمر حول علم المحيطات. وللمرة الأولى سيبقى مسكنه خاليا ولكننى وعدته أن أذهب فى غيابه إلى هناك لأطمئن على كنوزه.

ومن بين المقربين لبازيل، كان أيضا السيد روجيه مارينيللى الذى كان يمر باستمرار فى الصباح الباكر أو فى آخر المساء حيث كانت هناك تعليمات خاصة لدى الاستقبال تسمح له بالدخول فى غير مواعيد الزيارة؛ ولم يكن من الضرورى أن يقوم صاحب شركة أوتر تار بتقديم بطاقته الشخصية عند الدخول، فبعد عدة أيام أصبح الجميع يعرفونه عن بعد، ببدانته ولحيته وقميصه المشجر بالورد، فمعه كانوا يقضون أوقات فرح حقيقية.

ومن كندا أرسل سامي دبور سلة ورد هائلة مرفقا بها بطاقة تعارف فقال ب بِ وقد امتلأت عيناه مكرا:

- لقد نسى أن يكتب "لابن عمى الحبيب " فهل كنت سأكف عن الدفع؟

وذات مرة بعد الظهر، جاءت لورانس موبرجيه بصحبة المستشار الذى من المتوقع أنها ستتزوجه. وهى كما هى لم تغير من عطرها أو طريقة تصفيفها لشعرها، بل يبدو أن فكرة الزواج المقبل كانت تملؤها فرحا، فها هى تمزح محاولة أن تثير جوا جميلا بعدما وجدت بازيل وقد ارتفعت حالته المعنوية. كنا نشعر أنها منزعجة فى هذه الغرفة، حيث كان التدخين ممنوعا فكانت تحرك ولاعتها المطفأة وتقول بعض عبارات توحى بابتهاج كاذب.

ويبدو أن الزوجين سيقبعان فى مدينة ليون بعد قضاء شهر عسل فى صعيد مصر. وسأل جون بارترون دو فلورى، وهو هاوٍ لركوب الخيل ب بِ إذا ما كان هناك مربط للخيل بالقرب من المكان أم لا، فرجع بازيل إلى إحدى مفكراته ثم اتصل بمدير المؤسسة الرئيسية للفروسية فى منطقة نهر الرون فقام الأخير بتحديد موعد.

أما عن سابين فقد جاءت مرتين لرؤية بازيل الذى كان قد تأثر لرؤيتها تأثرًا خاصًا. أما أنا فقد فاتتنى فرصة لقائها فى المرة الأولى، لكننى فى المرة الثانية صاحبتها إلى محطة المترو، وقد ذكرت لى

أنها قد انتقلت من منزلها لتسكن استديو آخر به مصعد. وكنت سعيدًا عندما عرفت أن أحدا لم يخلفنى فى غرفة التصفية "الميزانين" فوق شجر الكريز...

وبالطبع لا يمكن أن أغفل الحديث عن الزيارة المفاجئة التى هزت كيان المستشفى لمدة أسبوع، ففى ١٥ نوفمبر حوالى الساعة الخامسة، حيث تعرفت ممرضتان على السيد جيلباربيكو فى الممر، وذلك على الرغم من نظارته السوداء. فقد جاء هذا المغنى فى زيارة خاطفة عشية احتفال سيقام فى الضاحية، حيث قابل بازيل ثم قال له:

- أنت معفى من حضور الحفلة الغنائية غدا بعد الظهر، ولكن إياك أن تتخلف عن الأوليمبياد فى فبراير هل دونت التاريخ؟ ٣ فبراير.

وبعد خروجه من الغرفة بعشر دقائق، التف حوله المعالجون والموظفون والمرضى حيث وقع لهم بلطف على الأتوجراف ولكن الرجل الذى كان يصاحبه - وهو إما السكرتير أو "البادى جارد"- قاده نحو سيارته.

وكان لهذا الحدث الباريسى عظيم الأثر فى زيادة شهرة ب بِ حتى أصبح كل من فى الدور يحرص على ملاحظة الأشخاص الذين يدخلون حجرته. حيث كانوا يلاحظون من حين لآخر وجها معروفا. وكان عدد الزائرين المشهورين منهم أو غير المشهورين يتزايد أكثر

فأكثر، حتى إن مانويلا لم تعد تحتمل هذا الازدحام، وكنت مثلها أشعر بالضيق والقلق، حتى إننا كنا نتساءل هل سنرى تَدَافُع شارع ريمون لوسوران؟. لقد كان بازيل يحرص فعلا على توزيع ابتساماته، إلا أننا كنا نشعر أنه متعب ومتضايق، حيث إنه قد حدثنا مرة أخرى عن الحادث الأليم الذى أودى بحياة والديه فى طريق الصحراء ولم أنم طوال الليل. وللمرة الأولى أدركت أنه من المحتمل أن يتركنا هو الآخر. وأثناء فترة ما بعد الظهيرة قامت مانويلا باقتحام مكتب رئيسة الممرضات وقالت مهددة:

- إذا لم يتم اتخاذ أى إجراء سأقف بنفسى فى الممر لأمنع الدخول.

ومن اليوم التالى حُدِد عدد الزائرين للغرفة رقم ٣.

(٤٧)

في رزمة الخطابات التي وصلت إلى شارع ريمون لوسوران كان يوجد هذا الخطاب المكتوب بخط مرتعش:

٢٥ نوفمبر ١٩٦٥

عزيزي السيد باتركاني،

أكتب لك من دار المسنين التي جئت إليها منذ عامين مشلول الساقين. إنني لا أترك السرير سوى لأجلس على كرسي متحرك لا يقلّني إلى أي مكان. ومنذ وفاة كلبي لا شيء يهمني في هذا العالم الكئيب. ذات مساء حاولت الانتحار بابتلاع كل السموم المتراصة على المنضدة الموجودة بجانب السرير، لكن الطب استبسل حتى أحيا جثتي من جديد فهم يهتمون بي كما ترى، ومنذ ذلك الحين حتى السكين يمنعونها عني أثناء الوجبات ويربطونني في الليل كأنني حيوان. فقررت أن أتحلى بالهدوء لبضعة أسابيع حتى يطمئن الحراس وأستطيع الكتابة، فالأطباء والممرضات مقتنعون أنني قد عدت إلى رشدي، آه إلى رشدي! أتوسل إليك يا صديقي العزيز أن تعطيني الوسيلة لأنهي هذا العذاب ولا أقول لك هذه المرة أن هذه

الخدمة سأردها لك، وعلى أى حال من المعروف عنك أنك لا تحب هذا النوع من الوعود.

تحياتى،

فيليب أتوبان

تساءل لوكو:

- ما هذا؟

قرأ بازيل الرسالة وهو صامت للمرة الثالثة وفى النهاية قال لى:

- أعطنى شيئًا أكتب به.

وأخذ يكتب لمدة ربع ساعة ثم طلب منى أن أذهب بالرد إلى العنوان المذكور. كانت دار المسنين ذات الإشراف الطبى تقع فى أقصى غرب باريس بالقرب من منطقة سان جرمان أون ليه، فاقترح لوكو أن يوصلنى قائلا:

- يمكننى أن أوصلك بدراجتى البخارية.

كنا ننتقل من ميدان لآخر وأنا أمسك بقميصه، وكلما كانت الإشارة خضراء كان ينطلق بسرعة فائقة كما لو كانت شرطة المدينة تطاردنا.

كانت دار "الليلا بلو" يكسوها الزرع ويحيط بهـا سـور مـن الطوب؛ دخلت الدراجة فى ممر محفـوف مـن الجـانبين بأشـجار الزيزافون. وانطلقت على الإسفلت محدثة صريرًا ووقفنا أمام المدخل بالضبط. كان هناك مسنان نحيفان جالسان على دكـة فـى الحديقـة غير ظاهرين، كانا يرمقان إلينا بنظرات يملؤها الرعب، فإذا بلوكـو يقول لى:

- إننى لن أدخل هذا المعمل، سأشعل سيجارة وأنتظرك حتـى تعود، وعليك أن تسرع، إن لم تكن تود العودة إلى باريس فى كرسى متحرك.

كانت تعتلى السلم امرأة عجوز صغيرة الحجم، يـسيل لعابهـا على فستانها، فسألتها عن حجرة السيد أتوبان فبدأت تصرخ بـصوت حاد وتأتى بحركات مجنونة غير سوية، فخرجت ممرضة من الصالة هدأتها وأرشدتنى إلى الحجرة رقم ١٢.

رأيت بعض النزلاء فى ممر الدور الأول يتقدمون بـصعوبة على مشاية وكان الباب مواربًا فصرخ صوت أجش:

- من أنت؟

فارتعدت خوفا، حيث كان هناك رجل منتصب فـى كرسـيه المتحرك، ذو حواجب بيضاء كثيفة ومبعثرة ونظـرة حـادة وكـان يرتدى روب دو شومبر نبيتى اللون.

ولم أكد أقدم له نفسى حتى شعرت أنه صدم وتمتم قائلا:

- كنت أعتقد أنه سيأتى بنفسه.

فقلت:

- إنه لن يستطيع فهو يرقد فى المستشفى... وعلى أى حال أعتقد أنه سيشرح لك ذلك فى هذا الخطاب.

فتح أتوبان الظرف بعصبية وقرأ صفحتين من خطاب بازيل ونظر إلى نظرة مرعبة دون أن ينبس بكلمة.

ولأننى كنت على علم بأن بازيل قد أعطاه رقم خطه المباشر سألته:

- ألا تريد أن تتحدث إليه؟

فرد بلهجة حازمة أو [بصوت قاطع]:

- لا أشكرك.

كانت شخصيته مؤثرة، لكن لم يكن يتسنى لى بحث هذا الأمر وقلت له بإصرار:

- ماذا أبلغه من طرفك؟

فتصلب وجهه دون أى تعبير.

فقلت:

- هل يستطيع هو الاتصال بك هنا بنفسه؟

فهز رأسه بالكاد رافضا. فشعرت بأن موجة من الغضب تجتاحنى وصرخت قائلا:

- إذًا تستطيع على الأقل أن ترد عليه.

فحرك عجل الكرسى ليذهب نحو الشباك المسدود بسياج الحديد ليعلن انتهاء المقابلة، فمشيت وأنا مغتاظ بعدما أغلقت الباب بصرير مدوٍ.

كان أمرا طبيعيا ما لحق ببازيل من خيبة أمل إثر إبلاغى له بما حدث وقال:

- لا بد إذًا أن أحدثه، هل لاحظت إذا ما كانت الغرفة بها تليفون؟

فأجبت:

- لا يوجد، وقد أكدوا لى ذلك فى الاستقبال.

- سوف نركب له خطًا، ولكننى أعرفه فإذا ما رفض التحدث فإن الجنرال دى جول بنفسه لن ينجح فى أن يجعله يرفع السماعة.

وضح بازيل لنا أن فيليب أتوبان كان بطلا فى المقاومة، وأن الجستابو (البوليس السرى الألمانى) كان قد قبض عليه فى عام

١٩٤٣ وعذبوه تعذيبا وحشيًا ولكنه أقنع معذبيه بأنه قد قبل العمل لحسابهم وفور تحريره، استدرج الرجل الذى خان شبكته إلى فخ وأطلق عليه رصاصتين وأرسل جثته إلى الكوماندا.

فكر بازيل قائلا:

- إذا كان أتوبان حاول أن ينتحر مرة فسيعاود المحاولة مرة أخرى بأى وسيلة.

لم أر ابن عمى منفعلا إلى هذا الحد من قبل، فقد استحوذ هذا الأمر عليه تمامًا حتى إنه طلب منى إحضار مفكراته، وخلال ما يقرب من الساعة أخذ يتصل هنا وهناك طلبًا فى استشارة كل من متخصص نفسى ثم متخصص مسنين وكذلك صراف...

وفى المساء زاره مخبر خاص يدعى جاتينول، كان بازيل قد خلصه من ورطة منذ عدة سنوات، وذلك ليطلب منه أن يتحرى فى الخفاء عن أتوبان.

أخبرت الممرضات البروفيسور فالاديه بكل هذه الضجة فجاء ليوبخ المريض قائلا:

- يجب عليك أن تراعى نفسك فقد ارتفعت درجة حرارتك كما أن الجلطات الصغيرة المنتشرة على ذراعك لا تنبئ بخير.

نام بازيل قليلا فى فترة ما بعد الظهيرة. لكن فى المساء عكف على اتصالاته التليفونية وهو ينظر فى مفكرته. ولم يكن يفكر سوى فى طلب فيليب أتوبان، فطلب من روجيه مارينيللى الذى يحسن التصرف أن يأتى ليتحدث معه فى هذا الصدد فى اليوم التالى فى ساعة مبكرة.

(٤٨)

اندهش صاحب شركة أوتر تار من الأهمية التى كان يوليها بازيل لقضية فيليب أتوبان فقال له:

- ليس من المعقول أن ينصت المرء لهؤلاء المسنين المخرفين الذين سئموا الحياة وإلا...

فرد بازيل بلهجة حادة:

- أتوبان ليس عجوزا مخرفا، إنه رجل محترم وسيكون قادرا على عمل أى شيء لينفذ مشروعه.

فهز مارينيللى رأسه وقال:

- ولماذا ستجن، لن يموت إذا تجاهلت طلبه. حان الوقت لأقول لك ذلك!

فقال بازيل:

- لا أستطيع تجاهل طلبه.

فانفعل الرحالة وقال:

- إننى لا أفهم ما تسعى إليه يا بازيل، أتريد منعه من الانتحار أم تريد أن تجد له الوسيلة؟

لم يحصل روجيه مارينيللى على إجابة من بِ ب واعتقدت فى هذه اللحظة أن بازيل نفسه لا يعرف شيئا، ولكن الأمر الوحيد الذى كان يفرض نفسه عليه هو ضرورة الاستجابة، فهناك من يطرق بابه وهو لا يستطيع أن يفتح له.

وقد حذر مارينيللى بازيل قائلا:

- انتبه يا بازيل! فإن العدالة لا تمزح فى مثل هذه الأمور وعلى أى حال فإننى أعتقد أن لديك أعمالا أخرى يجب أن تهتم بها. ألا تعتقد أنه لا بد أن ترعى صحتك؟

فتمتم بازيل قائلاً:

- أنت تعرف أن ذلك لا معنى له.

وعندما شعر مارينيللى أنه عاجز عن إقناع بازيل، اقترح أن يذهب هو بنفسه فى اليوم التالى إلى دار المسنين.

بدأ الرحالة يتكلم مع مديرة دار" ليلا بلو" دون أن يذكر خطاب أتوبان.

بدت له هذه السيدة التى كانت فى الخمسين من عمرها جافة بعض الشيء، ولكنها ليست غبية أو عديمة الإحساس. فقد أكدت لمارينيللى أنهم قد فعلوا المستحيل ليرى الحياة ممتعة ولكنه لم يعد يهتم بأى شيء ولا حتى الجرائد، فهو دائمًا فى عزلة مع نفسه. ذهب مارينيللى إلى الحجرة رقم ١٢، وقال لأتوبان:

- لقد كان بازيل يود أن ينقل لك بنفسه تحياته الحارة وقد كلفنى أن أبلغك أنه بإمكانه أن يجد لك كلبا ألمانيًا جديدا فى أسرع وقت، وإذا لم تقبل الدار الحيوانات فسيرتب لك الإقامة فى دار أخرى للمسنين لا تقل راحة عن هذه الدار.

فرد أتوبان بأسلوب جاف:

- إننى لم أطلب كلبا.

فقال مارينيللى:

- على أى حال إنك تحتاج إلى التغيير... ستنظم لك وكالة السفريات الخاصة بى رحلة حيث شئت فى أى قارة من القارات: لمدة أسبوع، أسبوعين أو شهر ... ولن يكلفك ذلك فرنكا واحدا، ولا تحمل هم التكلفة سأرتب لك السفر برفقة ممرضة.

فما كان من أتوبان سوى أن أدار كرسيه ناحية النافذة.

هذا وقد رفض القائمون على الدار تركيب خط تليفون في الغرفة ١٢ "حتى لا يثيروا الغيرة" بين النزلاء، فاتصل بازيل بمكتب وزير الداخلية وفي اليوم التالي قام رئيس المديرية شخصيا بالاتصال بمديرة الدار ليطلب منها تركيب خط للسيد أتوبان.

لكن كما توقع بِ ب، رفض أتوبان الرد على التليفون رفضًا باتًا حتى عندما كانت إحدى الممرضات ترفع له السماعة وتعطيه إياها، كان يظل جامدا ولا يرد، وتقرر إذًا سحب "الفيشة" حتى لا يزعجوا النزلاء الآخرين.

لم تكن الغرفة رقم ١٢ ترد، وعلى بعد بضعة كيلومترات ساد التوتر في الغرفة رقم ٣، استحوذت على بازيل بعض الأفكار السوداوية وتواردت إلى ذاكرته بعض الإخفاقات الماضية خاصة تلك التي تتعلق بذلك الشاب الذي أتى من ليون ليتقدم إلى بازيل في مكتب شارع ريمون لوسوران ذات يوم، وكان ذلك في فترة ما بعد الظهيرة من عام ١٩٥٩ حيث حكى عنه بازيل قائلا:

لقد كان يرغب في العيش في تاسمانيا، وكنت متعبا في ذلك اليوم وسمعته وأنا شارد الذهن وبدا لي هذا الطلب تافها. وكان هناك أناس آخرون في الغرفة المجاورة وبعدها بعدة أيام علمت أن هذا الشاب قد ألقى بنفسه أمام قطار.

فتساءلت مانويلا:

- وماذا بعد، من المحتمل أنه كان يعانى من مشكلة عاطفية.

لكن بازيل عاد إلى كلامه وقال:

- لم أعرف كيف أستمع إليه؛ لم تفهمه عيناى، كان علـــى أن أرى رعشة يديه...

أما الآن مع أتوبان فالأمر غير ذلك، فهو رجل وصـــل إلـــى نهاية حياته ويطالب بطريقة واضحة وواعية، أن ينهيها أفلا ينبغـــى أن أسمعه هو أيضا؟

لم يكن لدى بازيل أى اعتراض على مبدأ الانتحـــار، ولكـــن يتوقف الأمر على أشياء عديدة. فإذا كان انتحار شاب فى العـــشرين من عمره وهو يلقى بنفسه أمام قطار يبدو شيئا غير محتمل، فمن ذا الذى يستطيع أن يمنع عجوزا وحيدًا لا ينتظر أى شيء من الوجـــود أن يرقد رقدته الأخيرة؟ كان بازيل يفكر فى المرض الذى ينخر فـــى بدنه، يا له من سرطان لعين! فهذا الذى كان يعشق الحياة لـــم يكـــن ليتصور أن هناك من يرغب فى التخلص منها. عند القـــبض علـــى فيليب أتوبان عام ١٩٤٣ ألم يرفض هو نفسه ابتلاع حبة الـــسيانور التى دائمًا ما كان يحملها معه، على الرغم من أنه كان واعيًـــا لمـــا ينتظره من أشد ألوان العذاب. ولقد أثار هذا الحدث كثيرا من الأفكار لدى بازيل منذ سنوات قليلة حتى أنه ظل يتساءل ماذا كـــان ســـيفعل هو نفسه فى مثل هذا الظرف وكان يقول لنا:

- آه، فقط لو أستطيع التحدث معه!

وعند الحديث عن خروجه من المستشفى لفترة وجيـزة، فـإذ به يواجه برفض صريح من البروفيسور فالادييه، كما وبخته مانويلا قائلة:

- هل تريد أنت أيضا، أن تودى بحياتك؟

ثم ندمت على ما قالت وأضافت فى رقة قائلة:

- انتظر حتى الشفاء! فلدى رؤيتك بهذه الحالة، لن يروق لهذا الرجل التمتع بالحياة.

كان بازيل أضعف من أن يعترض وحاولت أن ألفت انتباهـه إلى موضوع آخر كان قد ورد فى خطابات أخرى وصلت إلى مكتب شارع ريمون لوسوران، ولكنه كان يعاود الحديث عن أتوبان. ووفقا لتقرير المخبر، عرف بازيل أن أتوبان لم يكن علـى علاقـة بـأى شخص منذ عدة سنوات، فتساءل قائلا:

- من الذى يستطيع أن يجعله يستمع إليه؟

فتعجب مارينيللى قائلا:

- لعلك تريد مانويلا أن تذهب إليه لتعزف له؟

فقال بازيل فجأة:

- إننى أفكر فى شخص ما.

و بعد عدة ثوان قال:

- جون... نعم جون أورونج.

فاندهش مدير شركة أوتر تار وقال:

- ما الذى أدخل الشركة الوطنية للسكة الحديد فى هذا الأمر؟

فقال بازيل:

- إن جون أورونج هو أحد قدامى مقاومى فاركور وهو الذى قد يجد قبولا لدى أتوبان.

وبالفعل تم الاتصال بزوج جان الذى كان مستعدا بالطبع لأن يقوم بأى شيء من أجل بازيل، فاقترح لوكو أن يذهب ليحضره ويصحبه بدراجته البخارية حتى دار الليلا بلو.

وعلى الفور قابل أتوبان المبعوث الجديد بغضب عارم ولكن جون لم يذكر ألقاب المقاومة كما نصحه بازيل.

فقال الرجل صاحب الكرسى المتحرك:

- أدرك تمامًا أن بازيل لا يستطيع الحضور ولكن لماذا يبعث لى بكل هؤلاء الأشخاص؟ لقد طلبت منه خدمة محددة قد تكون تعرفها؟ فهل يريد تقديم هذه الخدمة أم لا؟

تمتم جون أورونج ببعض الجمل المرتبكة ثم أخذ يحدث نفسه حديثًا مطولاً كشف خلاله عن قناعاته، فبالنسبة لمناضل الحركة الكاثوليكية، الحياة لا يمتلكها إلا من وهبها.

فتمتم أتوبان قائلا:

- لقد سمعت هذا من قبل. فزوجتى التى تتسم بعدم الحذر مثلك فى الفاركور ذهبت دون عودة إلى رافنسبروك عام ١٩٤٣، ولكنها الحرب أليس كذلك؟ كنا نتقاتل ونعيش، وعن نفسى، لقد أحببت كثيرًا السنوات التى أعقبت الحرب. وفى عام ١٩٥٩، اصطدم سائق أرعن، كان تحت تأثير قلة قليلة من الكحول فى الدم، بالسيارة التى كانت تقِل أبنائى وكان الصدام مروعًا. لقد وهبنى الله إياهم كما قلت، ولكن ألا ترى أنه قد استردهم قبل الأوان؟

(٤٩)

كان أتوبان يرغب فى الموت، وكانــت هنــاك عــدة طــرق لإرضائه، إلا أن بازيل لم يكن يطيل الحديث فى هذا الصدد، وكنــت أعلم جيدا أنه لا يحتاج أكثر من اتصال تليفونى ليقدم له هذه الخدمة، فعلاقاته تضم عددًا من الصيادلة وضباط المخابرات، وأذكر من بينهم "الدكتور لواريه" هذا الغامض الذى رأيته يدخن البايب فى هدوء حين صادفته مرتين أو ثلاث فى شارع ريمون لوسوران...

لم تكن الصعوبة فى تنفيذ طلب أتوبان مادية، ولكن كانت فــى معرفة كيفية تحقيق طلبه، حيث كنت أشعر أن ابن عمى يتأرجح بين أمرين، فهذه القضية تحرك فى بازيل مشاعر معقدة، ودون شك كان يرجع بفكره للكيلو ٦٥ على طريق الإسكندرية.

وعن فيليب أتوبان، فقد درس الهندسة، وقد وجد بعد الحــرب وظيفة فى البحث العلمى. وكان يستطيع أن يسلك الطريق الــسياسى مثله فى ذلك مثل كثيرين غيره، لكنّ صرامته وكبرياءه وربما طبعه السيئ، قد حالوا دون ذلك، إلا أنه بقى على اتصال بأصدقاء قــدامى فى المقاومة السرية (جماعة المقاومة ضد الاحــتلال الألمــانى فــى فرنسا). وبعد أن تعرف على الأستاذ بليسيه بونتال فى القاعة بــشأن

قضية ميراث، سرعان ما نشأت علاقة صداقة بينه وبين بازيل، واستطاع بواسطة بليسيه بونتال أن يتصل بأنصار دى جول ذوى النفوذ، ولكن أتوبان انطوى على نفسه خاصة بعد وفاة أولاده.

كان ب ب يتذكر مناقشات دارت فى الماضى بينه وبين المهندس أتوبان، فمن الواضح أن هذا الرجل قد أثر فيه حتى إنه كان يقول:

- يبدو أنه عندما كان يعود أنصار المقاومة، منهكة أجسادهم، كانوا لا يزالون قادرين على أن ينظروا نظرة معبرة أو أن يبتسموا ابتسامة يطمئنوا بها زملاءهم فى الزنزانة. وهذا يعنى يا سيد أرسطو أن تقديم الخدمة دائما ما يكون ممكنا وفى متناول أى إنسان.

كان هذا يوحى له بعقد مقارنات كثيرة كما لو كان يستبصر نتاج خدماته:

- ومن أجل مساعدة الأفراد على الخروج من ورطاتهم، يكفى أحيانًا القيام بأشياء قليلة جدًا ولتكن دفعة بسيطة لا تكاد تذكر حتى يتمكن إنسان مكبل من النهوض ثانية أو أن يعرف أقصر الطرق لتحقيق هدفه فيكفى أن تدير عجلة الحظ الكبرى فى اتجاهه ولكن دون أن يشعر...

فى هذه المرحلة تحديدًا، لم يكن الأمر كذلك، فقد كان أتوبان شديد الإصرار على الموت مما زاد حالة بازيل المرضية سوءًا. كان

البروفيسور فالاديه قد نقل إلينا قلقه ولكن كنا جميعا نقف مكتوفى الأيدى. وكنا برفقة مانويلا، نقضى ساعات طويلة فى حجرة بازيل محاولين دون جدوى لفت انتباهه إلى موضوع آخر، ولكن بازيل كان يقول:

- إننى ليس فقط لا أستطيع مساعدة أتوبان ولكنه أيضا يرفض مكالمتى.

كان هذا الوضع يشبه وضع أولئك الناس الذين كانوا يعرضون عن بازيل، ويتظاهرون بعدم معرفته. هذا الشيء الذى كان بازيل لا يستطيع معه الحياة.

أيكتب لفيليب أتوبان مرة أخرى؟ كان بازيل يعرف أن ذلك لن يجدى وهو على أى حال لم يكن يحسن فن الكتابة، وإنما كان تأثيره فى صوته الحى وحديثه المباشر وجهًا لوجه؛ أو إذا تعذر فليكن عبر الهاتف، ويردد قائلاً:

- آه فقط لو كنت أستطيع محادثته!

كان التوتر يغمرنا جميعنا، حتى أن هناك أحلاما مزعجة كانت تؤرق منامى، فقد رأيت بازيل ينادينى لأجلس بالقرب منه بعدما طلب منى غلق باب الحجرة ليهمس فى أذنى:

- هل تريد أن تسعدنى؟ فلقد أنهكنى المرض، ولم أعد أحتمل الآلام، أنت وحدك تستطيع أن تساعدنى أن أتخلص من هذه الآلام.

وكنت أهربِ فى الممر ساحبًا مريضًا على كرسى متحرك.

ومرة أخرى رأيت زينة دكاش التى كانت قد انتخبـــت ملكـــة جمال مصر وقد جاءت فى زيارة للمستشفى بزينتها المتكلفة وحذائها العالى، وكانت تحمل باقة ورد، وكانت تبدو عارية إلا من عقد مـــن لؤلؤ أبيض كان يتلألأ فوق نهديها. وعند رؤيتها فقد بازيـــل وعيـــه وكنت أحاول أن أعيده إلى الوعى ولكن دون جدوى.

(٥٠)

لقد اكتشف البروفيسور فالاديه أن بازيل يعاني من إصابة في الرئة رئوى وقال لمانويلا:

- لا أخفى عليك فالأمر خطير.

فانفجرت في البكاء، أما أنا فقد تحشرج حلقي وأمسكت بذراعها لنقوم بجولة في الحديقة كأخوين يتيمين دون ذلك الشخص الذي اعتدت على أن أناديه بابا منذ وقت قريب.

كان ضيق النفس يزداد حدة، حيث كان يعاني من صعوبة في التنفس. ولكن هذا لم يمنعه أن يردد:

- إنني أدرك تصميم أتوبان، فسينجح لا محالة في الانتحار.

كان بِ بِ يركز نظره على الباب الزجاجي للغرفة ١٢ التي حدثوه عنها، حيث لم يكن الإغلاق المحكم للباب بالمفتاح ولا الحديد بالشيء الذي يطمئن بازيل، وذلك لأن هذا الرجل الجالس على الكرسي المتحرك كان في إمكانه أن يقذف بنفسه من الدور الأول، وكان يستطيع أيضا أن يهشم رأسه في حائط أو يترك نفسه يموت جوعا...

لقد كان بازيل مقتنعا بأن حياة أتوبان بين يديه، أما لوكو فقد خرج عن هدوئه وانطلق فجأة يتحدث عن أشياء غير مترابطة، حيث كان وحده هو الذى يفهم معناها:

- لقد ضقت ذرعا لعدم مساعدة شخص فى خطر، لقد ضقت ذرعا بمشاكل العوام، عواما كانوا أم خواصا، فليذهبوا إلى الجحيم.

إننى سأذهب لأقول لأولئك الأقذار...

كنت أنظر له وأنا مرعوب ولم أكن أعرف كيف أسكته، إلا أنه قد خرج من الغرفة فجأة.

ذهبت مانويلا لتأخذ نايها وبعد ما عزفت عزفا قليلاً، توقفت وعيناها مملوءة بالدموع.

كان لوكو يندفع بدراجته البخارية بجنون نحو منطقة سان جيرمان أون ليه مخترقا إشارتين أو ثلاث دون أن يشعر، وبعد عشرين دقيقة اقتحم غرفة فيليب أتوبان وأغلق الباب بقدمه! وقال للرجل الجالس على الكرسى المتحرك وهو يمد له يده بمدية

ها هو الشيء الذى كنت تبحث عنه.

فسأله أتوبان بهدوء:

- من أنت؟

- أنا صديق لبازيل باتركانى.

- أهو الذى أرسلك؟

- قلت لك إننى صديق بازيل.

- وأنا أسألك إذا ما كان هو الذى أرسلك؟

وبينما كان لوكو لا يزال يمدّد المدية، إذا بـه يفقـد القـدرة تمامًا فى السيطرة على نفسه، ويصرخ بصوت عال:

ألا ترى بالله عليك أنك تقتله! إنه يقلق من أجلك قلقًا شـديدًا، إنه مريض، مريض حقا وليس فقط على كرسى متحرك. من أجـل من تجلس على هذا الكرسى القذر! لا ينبغى أن تزعج العالم بأسـره طالما أنك لا تريد هذه المدية...

كان لوكو يبكى كطفل وهو يتنقل من فكرة لأخـرى ويخلـط كل شيء، فلقد تحدث عن والدته التى لم تكن بحاجة إلى سكين:

- استخدمت عنق زجاجة مكسور.

وتحدث أيضا عن الأب الذى انكسرت رجله فجـأة وأكمـل قائلا:

- كان ينبغى لى أن أحضر لك زجاجة...

فقال أتوبان:

- اهدأ.

فتغيرت نظرته وكأن الغشاوة التى كانت تغطى عينيه قد انقشعت فجأة.

فصرخ لوكو باكيا:

قلت لك إنه على وشك الموت.

فاقترب أتوبان بكرسيه المتحرك من لوكو وأخذ يردّد:

- اهدأ يا صغيرى، اهدأ، ثم أخذ السكين ووضعها فى جيب قميص لوكو. وأشار بيده على الطاولة التى كانت بجانب السرير وقال.

- هل تستطيع أن تضع فيشة التليفون:

وعندما دق جرس التليفون، كانت كمامة الأكسجين قد وضعت لبازيل وكان معنا روجيه مارينيللى الذى كان يسهر على راحته، وقام بالرد على الاتصال.

فتردد للحظات قبل أن يناول السماعة لبازيل؛ لأنه كان يخشى صدمة عصبية عنيفة. لكنه كان يعرف أنه لم يعد يتبقى لصديقه الكثير.

أما بِ بِ فقد كانت عيناه نصف مفتوحة والسماعة مرتكزة بين أذنه والوسادة، حيث كان يستمع لأتوبان ويرد عليه بابتسامة.

وكنت أجهل ما يقوله هذا المقاوم القديم، لكن بازيـــل ظـــل متـــشبثا بالسماعة طوال فترة ما بعد الظهيرة كما لو كانت طوق نجاة.

وبعد فترة وجيزة، لحق بنا لوكو فلم يكن من بازيل إلا أن قال له بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- شكرا.

فرد لوكو بلطف:

- إن ذلك يسعدني.

(٥١)

هذا ولم يكن لابن عمى وريث ولا أحد يخلفه، لذا فقد اختفت الشبكة باختفائه، حيث لا أحد منا كان مؤهلاً لنسج شبكة أخرى مماثلة، فسيذهب كلٌ منا إلى حال سبيله، ولكننا سنظل للأبد نذكر رجلا متألقًا ورصينًا وكأنه بارقة ضوء فى الظلام.

وعند خروجنا من المقابر، ركب لوكو دراجته البخارية واجتاز الشارع الطويل المحفوف بالأشجار والهواء يلطم وجهه دون شك ليجفف دموعه. وقبل موت بازيل بأيام قليلة، كان روجيه مارينيللى قد وعد بازيل بأنه لن يتخلى عن لوكو.

أما مانويلا فقد رحلت مثلما جاءت فى هدوء، حاملة نايها وحقيبتها، وعزفت سيمفونية لموتزارت على حافة النهر بالقرب من كوبرى لاتورنل.

ووفقا للوصية القصيرة المحفوظة لدى السيد بليسيه بونتال، انتقلت شقة جيه لوساك للجمعية الخيرية، وكذلك بعض السندات المالية التى كانت فى حوزة ب بِ.

ولقد كان يهمس لى عشية وفاته:

- أرسطو، يمكنك الاحتفاظ بمفكراتى إذا كان ذلك يروق لك، فيبدو أنك مهتم بها ولكننى لا أعرف ماذا يمكنك أن تفعل بها.

لم أقوَ حينها حتى على أن أشكره، فلقد شل الحزن فمى وعينى ويدى، وكنت على وشك أن أفقد ذلك الذى أرشدنى إلى قانون الحياة الحقيقى: " أن تجرؤ على طلب الخدمة وتتلقاها بمروءة وليس من الضرورى دائمًا أن تردها". كنت أراه يبتعد وهو الذى كان "ينتزعنى" من شرقيتى فى الوقت الذى كان يغرس فى نفسى الفخر لكونى شرقيًّا.

نعم يا بازيل ما زالت المفكرات هنا على الدوام مع علب الأحذية المملوءة ببطاقات التعارف. علب الأحذية...

نعم، كلها هنا فى متناول يدى، ذات اللون الأزرق والأسود والأخضر والبنى الفاتح... ليس لها نفع ولكنها بالغة القيمة. وإننى أقلبها من وقت لآخر فى أمسيات الصيف فى الحديقة، فهذا هو مزاجى.

المؤلف فى سطور:

روبير سوليه:

ولد فى القاهرة عام ١٩٤٦ وذهب إلى فرنسا وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وهو اليوم أحد أكبر محررى صحيفة "لومند" الفرنسية.

ولولعه الشديد بمصر وبحضارتها وبتاريخها القديم، لم يفقد سوليه إحساسه بها فعند احترافه الكتابة، أصدر عدة مؤلفات ترتبط أحداثها بمصر وبمدنها؛ ومنها "الطربوش" و"سيمافور الإسكندرية" و"المملوكة" ورواية "مزاج".

وهناك أيضا بعض المؤلفات التاريخية وثيقة الصلة بمصر، والتى يتحدث فيها عن ظاهرة "إجيبتو مانيا" مثل "مصر ولع فرنسى" و"رحلة المسلة المصرية إلى باريس" و"علماء بونابرت" و"حجر رشيد" وغيرها...

المترجمة فى سطور:

إيمان محمود الهباش

- ترجمت العديد من الكتب العلمية، والتاريخية، والأبحاث العلمية.
- تُدرّس اللغة الفرنسية فى مدارس خاصة، وتدرس قواعد اللغتين الإنجليزية والفرنسية في عدد من المعاهد الخاصة لما يربو على عشر سنوات، وتدرّس العربية للأجانب.

حصلت على:

- دبلومة سكرتارية تنفيذية من الغرفة التجارية والصناعية (باريس)، وشهادة اليونس فرونساز من وزارة التربية والتعليم الفرنسية.
- دورة ترجمة الأخبار بوكالة أنباء الشرق الأوسط.
- دورة ترجمة الأخبار وتحريرها بوكالة أنباء الشرق الأوسط.
- شهادة ممارس للبرمجة اللغوية العصبية من البورد الأمريكى.
- دبلوم وممارس هيبنوثيرابى من البورد الأمريكى.
- دبلوم كورت من المركز العالمى للبرمجة اللغوية العصبية.

المراجعة فى سطور:

داليا حسام الدين عبد الحميد زعتر

- ليسانس الألسن فى اللغة الفرنسية.
- دبلوم الترجمة الفورية والتحريرية المعادل للماجستير.
- دكتوراه الألسن عام ١٩٩٩.
- محاضر بقسم اللغة الفرنسية – كلية الألسن – جامعة عين شمس.

التصحيح اللغوى محمـــــود حـنفـــى

الإشـــراف الفنى محســـــن مصطفـــى

عبر شبكة محيرة من العلاقات تحكى الرواية قصة شاب رحل عن مصر متجهًا إلى فرنسا في الخمسينيات، واستطاع مع الوقت أن يقدم خدمات ويحيك مؤامرات حتى أصبح قويًا. فترى ما هى بالضبط تلك الطرق التى كان يسلكها ذلك الشخص الغامض الذي يدعى "بازيل باتركاني" الذي ورث من أجداده الشرقيين حرفة التجارة والوساطة.

" المزاج " هي كلمة يفهمها الشرقي تلقائيًا، وتصعب ترجمتها في الغرب؛ حيث إن لها معان كثيرة، فقد تعني الذوق الخاص أو الإرادة المطلقة أو الميل أو ربما خليط من ذلك كله.

حيّرت تلك الشخصية كل من تعامل معها أو سمع عنها. كان بازيل قادرًا على إثارة الدهشة أينما وجد؛ إما عن طريق نفوذه أو عن طريق الجاذبية التي يتمتع بها والتى تجعل النساء تنجذب إليه، أو ربما لأنه كان يطرح بطريقته أسئلة مهمة تغري وتحير كل من يقترب منه وخاصة ممن كانوا يرجون منه خدمات.

هل كان " بازيل " يقدم تلك الخدمات من أجل المصلحة كما كان يظن البعض أو لأن " ذلك يسعده " كما كان يقول؟

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح